الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف لميلة

معهد الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي
المرجع: .....

ثنائية المدح والذم في شعر الأخطل

مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماستر في اللغة والأدب العربي
تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبتين:
*** خولة قردوح**
*** فتيحة غرابة**

إشراف الأستاذ:
محمد العربي الأسد

مُقدِّمة

كان عصر بني أمية عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم الأخرى في مشارق الأرض ومغاربها، الشيء الذي أشعل في نفوسهم جذوة وروح الشعر، باحتكاكهم بالثقافات والمؤثرات المختلفة من بيئية ودينية وحضارية وثقافية، حيث اندفع الشعراء في ظل هذه الظروف إلى النهوض بالشعر العربي وتطوير فنونه وأغراضه .

حيث شكل غرضا المدح والهجاء ظاهرة فنية ثقافية بارزة في الديوان الشعري العربي؛ لكونهما أكثر الأغراض شيوعا والتي قال فيها العرب واهتموا بها، إذ قلما نجد شاعرا يخلو ديوانه من هذين الغرضين، ونحن هنا نخص بالذكر حالة التطور التي عرفها الشعر في العصر الأموي، حيث شهدت قصيدتا المدح والهجاء تطورا ملحوظا عما كانت عليه في العصور الأخرى وخاصة في العصر الجاهلي، بيد أن هذا التطور لم يكن مقتصرا على شاعر دون آخر بل تضافرت جهود شعراء العصر كله، ومضى شعراء المديح ينفذون إلى لون جديد وهو الشعر السياسي، ومن بينهم نذكر الشاعر الأموي الفحل الأخطل التغلبي الذي شبه في شعره ومدائحه بالشعراء الجاهليين، وخاصة الأعشى والنابغة الذبياني لكونه من المجيدين في شعر المدح والفخر والهجاء.

ولمَّا كان الأخطل على هذه المنزلة مِنَ الشّعراءِ المجيدين وخاصّة في غرضي **المدح** و**الهجاء**، دفعنا ذلك إلى البحث في موضوع: "**ثنائية المدح والذم في شعر الأخطل**"، حيث تعددت الأسباب والدوافع لاختيار هذا الموضوع منها ماهو ذاتي ومنها ماهو موضوعي كتسليط الضوء على الشعر الأموي عامة وشعر الأخطل خاصة، ومحاولة التعرف والكشف عن قيمته الجمالية والفنية في غرضي المدح والذّم؛ لكونه من شعراء المثلث الأموي، ومن جهة أخرى أنه لم يحظ في بعض جوانبه بدراسات كاشفة عن أسراره؛ ممّا دفعنا إلى البحث عن الجديد والمميز

في شعره بالإضافة إلى الرغبة والميول إلى دراسة الأدب القديم.

وعلى ضوء ما تقدّم تبلورت في أذهاننا إشكالية البحث والتي تحددت في النقاط التالية:

- كيف تجسدت ثنائية المدح والذّمّ في شعر الأخطل؟
- ما مدى ظهور كل غرض أو فن – عند الأخطل – وأيّهما طغى على الآخر؟
- وكيف تشكلت شاعرية الأخطل من خلال هذيْن الغرضيْن ؟.
- وما هي الإضافة التي أضافها الأخطل إلى الشعر العربي؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية تم تحديد خطة ثنائية الفصول يتقدّمهما مدخَلٌ نظريٌّ تناولنا فيه غرضي المدح والهجاء في الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى العصر الأموي.

وتناولنا في الفصل الأول بالوصف والتحليل غرضَ المدحِ عند الأخطل، وتتبّعنا خصائص مدحه. وكشفنا موضوعات مدحه وممدوحيه...

أمّا الفصل الثاني، فتناولنا فيه – كذلك – غرضَ الهجاء، ومن خلاله (الذّم) وما هي خصائصه؟ وما هي الفئات التي نالها هجاؤه؟ وما هو الذّم؟

وأخيراً ختمنا بحثنا بتسجيل مجموعة من الملاحظات التي تلخِّص أهمَّ نتائج البحث التي تجيب عن بعض جوانب الإشكالية معتمدين في ذلك على المنهج الموضوعاتي مع الاستعانة بآليات مناهج أخرى عند الحاجة؛ كالمنهج الفنّي مثلاً، ومستعينين بأدوات البحث من وصف وتحليل.

وقد أدت بنا هذه الدراسة إلى تصفُّح عدة مصادر ومراجع أدبية ونقدية، كان أهمها كتاب الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي لمحمد هاشم عطية، وكتاب تاريخ الأدب في

العصر الجاهلي لشوقي ضيف بالإضافة إلى كتاب الأسلوب والأسلوبية لعبد السلام المسدّي، وأهم مصدر قام عليه بحثنا هو ديوان الأخطل التغلبي، هذا الديوان الذي سنشير إليه بمصطلح "**الدّيوان**" فقط أثناء الإحالة على الهامش؛ وذلك لكثرة الإحالات منه.

ومن الصعوبات التي واجهتنا نذكر عدم أريحية الظروف النفسية والمادية المطلوبة لإنجاز بحثٍ علمي نتيجة تفشّي جائحة **كورونا**، والوضعية الصحية السيئة التي تمر بها البلاد.

في الأخير نتقدم بالشكر والعرفان للأستاذ المشرف، الدكتور "محمد العربي الأسد" الذي تابع عملنا في جميع مراحله بإرشاداته، وأن نرفع له أسمى آيات التقدير والعرفان لتواضعه العلمي وتوجيهاته الحثيثة، وكذلك لا يفوتنا أن نتوجَّهَ بالشكر والتقدير إلى أعضاء لجنة المناقشة على تجشُّمهم عناء قراءة البحث؛ لتصحيح الخلل، وتصويب الزلل.

جازى الله الجميع خير الجزاء.

المدخل

- توطئة

يذكر العلماء فنون الشعر وهم يقصدون بها تلك الأنواع المبثوثة في تضاعيف الكتب، من المدح والحماسة والفخر والنسيب والوصف والإعتذار والحكمة والهجاء، ومنهم من يدخل بعض هذه الأنواع في بعض، فيجعل الرثاء والفخر والنسيب داخلة في باب المديح، بل منهم من يجعل الشعر كله قائما على المدح والهجاء لاغير، ولكن الحق أن بعض هذه المقومات يختلف عن بعض، وأن الرثاء مثلا وإن كان فيه ذكر ممادح المرثي غير أن ذلك في الجملة منحرف عن قصد الشاعر حين تنصدع نفسه ويضرب الهم بين جوانحه، ويكون همه الشكوى من الدهر والبكاء لفقد الحميم .

وكذلك في النسيب وغيره مما ذكرناه، ومما يحسن التنبيه إليه هنا أن هذه الأنواع لاينبغي أن تكون هي ضروب الشعر أو أقسامه في ذاته، ولكنها أنواع لفن واحد كما أسلفناه "وهو ذلك الشعر الغنائي الذي يتحدث عن عواطف النفوس وما يحيط بها من مظاهر هذه الطبيعة الفطرية، في إخلاص وصدق وسذاجة، هي سر ما فيه من جمال وظل أو من طريق آخر هي أنواع ذلك الشعر العربي .[1]

[1]– محمد هاشم عطية ،الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ،مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1936، ص: 102.103.

كما وزع قدامة في كتابه نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات هي"المديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه "وحاول بعقله المنطقي أن يرد الشعر إلى بابين أو موضوعين هما المدح والهجاء، فالنسيب مديح وكذلك المراثي، ومضى يعين المعاني التي يدور حولها المديح وهي في رأيه الفضائل النفسية، ونجد نفس المحاولة في تضييق موضوعات الشعر واضحة في كتاب نقد النثر فهو مديح وهجاء وحكمة ولهو، ويدخل في المديح المراثي والإفتخار والشكر واللطف في المسألة، ويدخل في الهجاء الذم والعتاب والإستبطاء والتأنيب، كما يدخل في الحكمة الأمثال والزهد والمواعظ، اما في اللهو فيدخل فيه الغزل والطرب وصنعة الخمر والمجون"[2]

المدح في الشعر العربي

1 – تعريف المدح

1- 1 – المدح لغة:

المدح من مدح يمدح: أحسن الثناء عليه، ضد ذمّه، وتمدَّح: افتخر بما ليس عنده. ذكره القزويني (ت:682هـ) في كتابه " التلخيص" وعرفه فقال: ومنه تأكيد المدح بما يشبه الذم، وهو

[2] - شوقي ضي ف،تاريخ الأدب في العصر الجاهلي ،دار المعارف ،القاهرة ،ط 13 ، د ت، ص196.

ضربان أفضلهما أن يستثني من صفة ذم منفية عن الشيئ، صفة مدح بتقدير دخولها ومثل لهذا الفن بقول النابغة[3]:

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وجاء في لسان العرب معنى كلمة مدح: أن المدحَ نقيضُ الهجاء وهو حسن الثناء يقال: مدحته مدحة واحدة، ومدحه يمدحه مدحا ومدحة هذا قول بعضهم، والصحيح أن المدح المصدر، والمدحة الإسم والجمع، وهو المديح والجمع المدائح والأماديح الأخيرة على غير قياس، ونظيره حديث وأحاديث قال أبو ذؤيب :

لوكان مدحة حيّ منشرا أحدا أحيا أبا كنّ يا ليلى الأماديح

والمدائح جمع المديح من الشعر الذي مدح به كالمدحة والأمدوحة، ورجل مادح من قوم مدح ومديح ممدوح وتمدح الرجل تكلف أن يمدح، ورجل ممدوح أي ممدوح جدا ومدح للمثنى لاغير، ومدح الشاعر وامتدح[4]

[3]– إنعام نوال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة ،البديع والبيان والمعاني، دار الكتب العلمية ،بيروت، لبنان، ط 2،1996،642.

[4] - ابن منظور ،لسان العرب ،دار المعارف ،القاهرة ،دت ،دط ،ص4156.

1- 2 - اصطلاحا:

يعد المدح من أهم أبواب الشعر العربي القديم، لما له من مكانة كبيرة لدى الشعراء الجاهليين وخاصة لما أصبح الشعر أداة للتكسب والتقرب من الملوك والحكام فاتخذوه وسيلة وصناعة.

والمدح في الإصطلاح: غرض من أغراض الشعر يقوم على فن الثناء، وتعداد مناقب الإنسان الحي وإظهار آلائه، وإشاعة محامده وفعاله التي خلقها الله فيه بالفطرة والتي إكتسبها اكتسابا والتي يوهمهاالشاعرفيه[5].

وهو أيضا ذكر محاسن المرء وصنائعه، ويجعل منها في المقام الأول مايهتم به البدوي من مآثر كالكرم والشجاعة والمروءة والعفة ...الخ.

وكان الشاعر لايمدح إلا مرتبطا بالقبيلة فهو يمدح ماترى القبيلة مدحه ممن قدم لها معروفا أو مساعدة أو غير ذلك مما يستدعي المدح.

وقال ابن رشيق القيرواني (ت:456): "وسبيل الشاعر إذا مدح ملكا أن يسلك طريق الايضاح والإشادة بذكره للممدوح، وأن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية

[5] - محمود رزق حامد ،الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ،دار العلم والإيمان ،ط 1،2010 ،ص 118.

ويجتنب مع ذلك التقصير والتجاوز التطويل، فإن للملك سآمة وضجرا، ربما عاب من أجلها ما لا يعاب وحرم من لا يريد حرمانه"[6].

2- تطور فن المدح

يعتبر فن المدح من أهم أغراض الشعر العربي المتنوعة والمختلفة لكونه سجلا حافلا بتغيرات الحياة العربية منذ الجاهلية إلى صدر الإسلام، حيث شهد هذا الغرض تطورا ملحوظا وذلك بداية من العصر الجاهلي الذي اعتبر فيه من أهم أبواب الشعر العربي، بل كان الناس يخشون الشاعر أكثر من خشيتهم القتال.

و"كان للمدح مكانة كبيرة في العصر الجاهلي، وخاصة بعد أن تكسب الشعراء بالشعر واتخذوه صناعة ومدحوا به الملوك والرؤساء كالأعشى والنابغة وزهير وغيرهم، وكان الشعراء في الجاهلية يمدحون أبطال القبيلة وساداتها ويشيدون بمكانتهم بين القبائل، ويصفون أخلاقهم ومآثرهم ومحامدهم وشجاعتهم ويتغنون ببطولاتهم"[7].

"ولانصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى يتخذ الشعراء المديح وسيلة للتكسب، فهم يقدمون به على السادة المرزين وملوك المناذرة والغساسنة يمدحونهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة

[6] – ابن رشيق القيرواني،العمدة ،دار الجيل، ط5، 1981، ج2،128.

[7] – محمد عبد المنعم الخفاجي،الحياة الأدبية في العصر الجاهلي ، دار الجيل ،بيروت ،ط 1،1992 ،309،310.

وأخذوا في أثناء ذلك يعنون بهذه القصائد عناية بالغة حتى تحقق لهم مايردون من التأثير في ممدوحيهم"[8].

ومثالا على ذلك نذكر مطلع قصيدة الشاعر الجاهلي الفحل الأعشى التي يمدح فيها الأسود بن المنذر فيقول:

مابكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي[9].

وفي عصر صدر الإسلام فإن القصيدة المدحية اتخذت المنهج الجاهلي، واقتفت آثاره بدقة بكل مافيها من عناصر وموضوعات كالمدح والكرم والشجاعة واغاثة الملهوف، فجاءت جاهلية في شكلها ومضمونها إلا فيما أضيف إليها أحيانا من خيوط جديدة نسجت في ثوبها لتضفي عليها الجدة والتجديد.

وإذا أمعنا النظر في دواوين الشعر الإسلامي نجد أن قصيدة المدح تمتزج غالبا بالفخر والهجاء، فالفخر فخر بالدين الجديد أو الحزب فهو فخر متعصب لحزب من الأحزاب وكذلك

[8] – محمود رزق حامد ،الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ،ص 120،121.

[9] – المرجع السابق ،310 .

الهجاء تغلب عليه الصبغة السياسية بعيدا عن الأهواء الشخصية المتعصبة، ويمثل كعب بن مالك هذه المرحلة تمثيلاً حسناً فهو يقول[10]:

فينا الرسول ثم يتبعـــــــــه نور مضيئ له فضل على الشهب

الحق منطقه والعدل صورته فمن يجبه إليه ينج من تبـــــب

ومنذ مجيئ الإسلام عمل الرسول الأعظم محمد "صلى الله عليه وسلم" على تكوين منظومة أخلاقية واجتماعية وسياسية رصينة، فهي نظام شامل للحياة بجميع جوانبها، ومن الطبيعي أن تأخذ على عاتقها نبذ الأنساق الجاهلية السلبية وإبدالها بأنساق إيجابية[11].

أما في العصر الأموي فقد شهدت قصيدة المدح تطورا ملحوظا ، ولكن هذا التطور لم يكن مقتصرا على شاعر دون آخر، بل تظافرت جهود كل الشعراء على امتداد العصر الأموي، فتغيرت الحياة الأدبية فيه واختلفت عما كانت عليه في عصر صدر الإسلام، حيث "تمتاز قصائد المدح الأموية بانغماسها في الأحزاب السياسية التي كان يدعو لها بنو أمية وبالدفاع عن هذه الأحزاب ومناصريها، والرد على خصومهم، لذا فقد كان الحكام يدفعون بسخاء ليشتروا

[10] – فيروز الموسي ،قصيدة المديح الأندلسية ،دراسة تحليلية ،منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ،دمشق ،د ط. ،2009،ص7 .

[11] جميل بدوي حمد الزهيري ،المحمولات الثقافية في قصيدة المديح السياسية في العصر الأموي ،مجلة كلية التربية ،واسط، ع13، 2013، ص: 43 .

ألسنة الشعراء المدافعين عنهم، ومن هنا فقد إمتازت هذه القصيدة بالتكسب والسؤال في سبيل الغنى المادي"[12].

كما يلخص الدكتور يوسف خليف مميزات القصيدة في العصر الأموي بقوله: "ليست المعاني الإسلامية كل شيئ في قصيدة المدح الأموية فقد دخلتها أيضا عناصر سياسية جديدة، تتصل بسياسة الخلفاء والأمراء والولاة وما يؤدونه للدولة من أعمال من أجل استباب الأمن ونشر الطمأنية بين الناس، والضرب على أيدي العصاة والمتمردين، ونحو ذلك مما تقوم عليه سياسة الدولة الداخلية وهي معان جديدة تنتشر في شعر المدح انتشارا واسعا.[13]

من خلال ما تطرقنا إليه نرى أن غرض المدح قد انتعش في عهد بني أمية، وتطور تطورا ملحوظا وذلك راجع إلى الملوك والأمراء الذين شجعوا وبشكل كبير هذا الغرض بالهدايا والأعطيات، فتحولت الحياة الإجتماعية عما كانت عليه في العصر الجاهلي، حين بدأ الشعراء ينهلون من الدين الإسلامي فيمزجون بين الصفات العربية القديمة وبين الصفات الأخلاقية الدينية التي جاء بها الإسلام فنتجت قصائد مدحية جديدة مكنت بني أمية من التربع على العرش لفترة لا بأس بها .

[12] . فيروز الموسي ،قصيدة المديح الأندلسية ،ص11 .

[13] يوسف خليف، تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، دار الثقافة ،القاهرة ،د ط ،1976 ص164.

الهجاء في الشعر العربي

في هذا المبحث نتناول تعريف الهجاء كغرض شعري والذم نوع من أنواع الهجاء؛ لأن الذم لم يرد في الشعر العربي كغرض مستقل بذاته.

2- تعريف الهجاء

2– 1 – الهجاء لغة

جاء في معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي الهجاء بمعنى هجا (هجو) :هجا يهجو هجاء ،ممدود وهو الوقيعة في الأشعار والهجاء ممدود تهجية الحروف ،تقول تهجّأت وتهجّيت بهمز وتبديل.[14]

أمافي المعجم الوسيط: هجا الكتاب هجوا وهجاء قرأه وتعلمه، وفلان وفلانا: هجوا هجاء إذا ذمه وعدد معاييه ويقال المرأة تهجو زوجها وصحبته: أي تذمه وتشكو منه و(هجو اليوم) هجاوة إشتد حره، (أهجى) القول او الشعر وجده هجاء، (هاجاه) مهاجاة وهجاء، هجا كل واحد منهما صاحبه، (هجّى) الصبي الكتاب علمه إياه، (تهجى) الحروف الأبجدية عددها بأسمائها، او

[14]– الخليل بن أحمد الفراهدي،كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، باب الهجاء، ج4، ص: 296.

نطق بالأصوات التي تمثلها و(الأهجوة) مايتهجى به كالقصديدة او القطع الشعرية جمع أهاجي.[15]

3-2-اصطلاحاً:

الهجاء في الأدب أو الهجو هو غرض من أغراض الشعر، يقوم على تقبيح صورة الفرد أو الجماعة، أو عادة من العادات، أو مظهر من مظاهر الحياة والوجود، وهو تعبير عن احتقار الشاعر للمهجو

والرغبة في الحط من شأنه والهزء به، ومسخه ما أمكن إلى ذلك سبيلا[16] والهجاء واحد من الأغراض والموضوعات الشعرية الأكثر جذبا للمتلقي بالمقارنة مع الأغراض الأخرى ويأتي الهجاء مصاحبا للفخر، وقد يأتي مستقلا عنه في القصائد والمقطوعات القصيرة، والهجاء هو فصل المرء عن مجموع الخلق الحي الذي يؤلف قومية الجماعة، وتركه عضوا ميتا يتواصفون ازدراء.[17]

ولم يكن الهجاء عند العرب سبابا وإفحاشا، ولكنه سلب الخُلق أو **سلب** النفس، أو فصل المرء من مجموع الخلق الحي الذي يؤلف قومية الجماعة، وتركه عضوا ميتا، وقد كان للهجاء

[15] مجمع اللغة العربية ،المعجم الوسيط ،مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004، 1005.

[16] . إيميل بديع يعقوب ،ميشال عاصي ،المعجو المفصل في اللغة والأدب ،دار العلم للملايين ،بيروت ،لبنان ،ط 1،1987، مج1، ص1281.

[17] .الرافعي ،تاريخ آداب العرب ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،ط1 ،2000،ج3،ص81.

عندهم شأن كبير وهو قسمان: قسم يسمونه هجاء الأشراف، وهو ما لم يبلغ أن يكون سِبابا مقذعا، بل هو التضريب بين الأحساب، وقسم هو السِّباب ولا يجنح الشاعر إليه إلا إذا عجز عن إصابة المغمز الذي يكمن فيه الألم من الموضع الصحيح، والشاعر الهجّاء الناجح هو الذي يذكر مثالب الناس ومناقبهم ولذلك قال يونس بن حبيب: "لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس"، ومن الطريف أن الناس يتناقلون شعر الهجاء أكثر من شعر المديح، ولاسيما إذا كان هجاء القبائل الشريفة ولم يبلغ جرير مرتبته من الهجاء إلا لمكانِ علمه بالنسب والمثالب من جدِّه الخَطَفى.[18]

وهذا يعني أن الهجاء في مجمله يتناول موضوعات ذكر مساوئ الغير وسلبياته، فهو يعبر عن سخط الشاعر واشمئزازه من شخص **إلى** آخر أو من مجموعة من الأشخاص كالقبيلة أو الجماعة، وذلك بذكر مثالبهم وسلب فضائلهم والحط من قيمتهم وشأنهم.

ويذكر الجاحظ في كتابه الحيوان فن الهجاء وذلك بقوله :"وفي كل العصور الأدبية وإلى اليوم مارس الشعراء فن الهجاء، فالعصر الجاهلي هو الفترة الذهبية للهجاء، حيث فاعليته النافذة وأثره الإجتماعي والنفسي، ويمكن أن نطلق عليه في تلك الفترة "بالهجاء المبكي" فأعراف المجتمع الجاهلي القائمة على الصرامة في العادات والصفات اللصيقة بالشخصية لا تقبل الجرح أو التعرض والمس، خاصة في جانب العِرض والنسَب والشجاعة والكرم، ولذلك

[18] محمد التونجي ،المعجم المفصل في الأدب ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،ط 2 ،1999،ج1،ص872 .

كان للهجاء أثره البالغ المؤلم والأمر مابكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء، وهذا من أول كرمها، كما بكى مخارق بن شهاب وكما بكى علقمة بن علاثة، وكما بكى عبد الله بن جدعان.[19]

3- 3- تطور فن الهجاء:

كان الهجاء في الجاهلية يقصد به الحط من شأن قبيلة أو عشيرة أو فرد من أعداء قبيلة الشاعر وخصومها، وكان الهجاء سوطا يصبه الشاعر على خصومه وخصوم قبيلته فيثلبهم وينقص من مقامهم ويزري بهم، ويضع من مكانتهم، وينسب إليهم البخل والجبن والذلة والهوان، وكانت الخصومات الكثيرة بين القبائل والحروب المشتعلة في الجزيرة العربية في العصر الجاهلي سببا في الإكثار من شعر الهجاء ولكن المأثور عن هذا الباب لايضارع المأثور من باب المدح.

ويمتاز فن الهجاء في الجاهلية بالقصد في السب والشتم وتعمد الأوصاف الإجتماعية المزرية بالفرد من الهوان والبخل والجبن وسواها.[20]

وبمجيء الإسلام اختلف الهجاء عما كان عليه في العصر الجاهلي وذلك راجع إلى تعدد عوامله وموضوعاته فهو عصر أحزاب وفتن، عصر تطاحن ديني وسياسي، حيث قام الخلاف

[19] . الجاحظ، الحيوان ،تح، عبد السلام محمد هارون، دار الجيل ،بيروت، 1996، ج1، ص200.

[20] . محمد عبد المنعم الخفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي ،ص.312

بين مكة والمدينة، وحاربت المدينة تحت لواء الرسول، فتقاذف حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة مع عبد الله بن الزبعري وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص قصائد الهجاء، نظموها في ظلال الأيام والحروب التي نشبت بين البلدتين مثل يوم بدر ويوم أحد وغزوة الخندق.[21]

فالهجاء قد خفت صوته في صدر الإسلام وخفتت لهجته لنهي الإسلام عن التعرض للأعراض والقدح والإفتراء بغير الحق، فقد نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: "إن أعظم الناس جرما إنسان شاعر يهجو القبيلة من أسرها ورجل تنفى عن أبيه".[22]

أما في عهد بني أمية فقد اتسع نطاق الخصومات القبلية والحزبية والفردية، ونشأت الخصومات الفنية، وكان من الشعراء من لا تهمهم أحزابهم بقدر ما يهمهم فنهم الشعري، أو بالأحرى لم يمنعهم إنتماؤهم إلى أوطان أو أحزاب أو شيع خاصة، أن يعرضوا لِشعراء من الأوطان أو الأحزاب أو الشيع نفسها بشيء من الهجو أو المعارضة الفنية، بينما كانوا بالوقت نفسه ينصرون شاعرا من غير قبيلتهم أو حزبهم أو مذهبهم.[23]

1- ينظر: حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت ،لبنان، ط1،1986، ص: 395،396.

[22] . البخاري ،الأدب المفرد ،تح ، فؤاد عبد الباقي ،دار البشائر الإسلامية بيروت ،ط 3 ،1989، ص302.

[23] . حنا الفاخوري ،الجامع في تاريخ الأدب العربي ،ص396 .

"وقد تحول الهجاء في هذه الفترة من فن وقتي متقطع إلى فن دائم مستمر وأحتشد الناس في المِرْبَد والكُناسة يستمعون للمتنافسين ضاحكين **لاهين** وراح الشعراء يلبون رغبة التسلية في الناس ورغبة التغلب عند الحكام والأحزاب، ويحترفون الهجاء احترافا، وينظِّمونه تنظيما حتى أصبح نقائض تمتد امتدادا شديدا وتشمل المقدمات العامة التليدة، والإشادة بالمفاخر والأيام والإقذاع في القول الذي يمزق الأعراض وتفصيل المخازي تفصيلا يستطيع به الشاعر أن يتفوق على خصمه في نظر الجماهير".[24]

كما عادت العصبيات السياسية والقبلية في العصر الأموي كما كانت عليه في العصر الجاهلي أو أشد ، ونما مع هذه العصبيات الهجاء الشعري وتطور إلى مفاخرات منظمة كانت تجري بين الشعراء الثلاثة "جرير" و"الفرزدق" و"الأخطل"في الربد حتى أصطلح على تلك المفاخرات بفن النقائض فيما بعد .[25]

وعلى العموم فإن غرض الهجاء في العصر الجاهلي لم يكن يعتمد على السب والشتم والفحش بل كان يلجأ إليه الشاعر بغرض التحفيز ورفع المعنويات خاصة في الحروب من خلال وصف العدو أو الخصم بأبشع الصفات، كالجبن والبخل وعدم المروءة، وذلك من خلال

[24] – م، نفسه، ص: 397.

[25] . عبد الكريم حسن رعدان ،البعد البلاغي في شعر جرير الهجائي ،دراسة بلاغية نقدية ،مجلة جامعة الناصر، ع1، 2013، ص: 39.

سلب الخصم القيم الرفيعة التي يعتز بها العرب، حيث كان الشعر في هذه الفترة أقرب إلى اللوم والتوبيخ والعتاب.

أما في عصر صدر الإسلام فقد تأثر الشعراء بمجيئه فاتخذوا كتاب الله وسنة نبيه مادة لشعرهم حيث نهى الإسلام عن التعرض للأعراض والإفتراء بالباطل والتنابز بالألقاب فقد هذب الإسلام الشعر بشكل عام والهجاء بشكل خاص .

غير أن الهجاء في العصر الأموي إسترد عافيته ونضجه مرة أخرى وازدهر حيث ظهر بمصطلح آخر وهو السخرية ،وذلك بسبب الصراعات السياسية والحزبية بين المسلمين، وهذا ما ادى إلى تغذية شعر الهجاء في العصر الأموي الذي إتخذ غالبا طابعا سياسيا.

الذم في الشعر العربي

4 - تعريف الذّمّ

جاء في مختار القاموس:

ذ م م: ذمّهُ، يذّمهُ، ذماً، وذمة، فهو مذموم وذميم ضد مدحه، وأذمه وجده ذميما، وتذامّوا ذم بعضهم بعضا وقضى ذمّته، بكسر الدال وفتحها، أحسن إليه لئلاّ يذمّ وأذم فلان أتى بما يذم عليه والذّمام "الحق والحرمة ج أذمة"[26]

[26] . الطاهر أحمد الزاوي ،مختار القاموس، ص231.

أما في لسان العرب فالذم يفك إدغام الميم فهو:

ذمم: الذم، نقيض المدح، ذمّه، يذمّه، ذماً مذمّة، فهو مذموم وذمٌّ، وأذمه، وجده ذميما مذموما، وأذم بهم تركهم مذمومين في الناس (عن ابن الأعرابي).

وأذمّ به: تهاون، والعرب تقول: ذمّ يذمّ ذمّا وهو اللوم في الإساءة، والذم والمذموم واحد والمذمة الملامة، قال ومنه التذميم، ويقال: أتيت موضع كذا فأذممته، أي وجدته مذموما.[27]

ومنه فالذم هونقيض المدح وهو شيئ معيب يدل على صفات خلاف الحمد، فهو في معناه الحسي يدور حول النقص والقلة أو ما يعيب الأشياء إذا كانت مذمومة أو فيها خلل أو عيب.

5 ـ ما بين الهجاء والذم

إن الذم نقيض الحمد،و هما يدلان على الفعل، والحمد المكلف يدل على إستحقاقه للثواب بفعله، وذمه يدل على استحقاقه للعقاب بفعله، والهجو نقيض المدح وهما يدلان على الفعل والصفة كهجوك الإنسان بالبخل، وقبح الوجه، وفرق آخر أن الذم يستعمل في الفعل والفاعل فتقول ذممته بفعله وذممت فعله، والهجو يتناول الفاعل الموصوف دون الفعل والصفة، فتقول: هجوته بالبخل وقبح الوجه، ولا تقول: هجوت البيت إذا هدمته، وكان الأصل

[27] ابن منظور، لسان العرب، مادّة: **ذمم**.

في الهجو أن يكون بعد المدح، كما أن الهدم يكون بعد البناء، إلا أنه كثر استعماله فجرى في الوجهين.[28]

[28] أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تح: محمد ابراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، دت، دط، ص:52.

الفصل الأول

المدح في شعر الأخطل

1- تعرف المدح:

قبل أن نشرعَ في الحديث عن **ثنائية المدح والذّمّ في شعر الأخطل** ارتأينا أنّه من الأنسبِ أنْ نُلقيَ الضّوءَ على مفهومي: **المدح والذّمّ** في المعجميْنِ: اللّغويّ والشعري عند العرب.

1- 1- المدح لغةً

جاء في لسان العرب: المدح: نقيض الهجاء، وهو حُسن الثناء، ... يُقالُ: ... مَدَحَهُ يَمْدَحُهُ مَدْحاً ومِدْحَةً... والمَمَادِحُ: ضدُّ المَقابحِ[29].

وجاء في معجم التّعريفات للجرجاني، **المدح**: هو الثّناء باللسان على الجميل الاختياري قصداً"[30].

1- 2- المدح اصطلاحاً: هو: "غرضٌ من أغراض الشعر، يقوم على فنِّ الثّناء، وتعداد مناقب الانسان الحيّ، وإظهار آلائه، وإشاعة محامده وفعاله التي خلقها الله فيه بالفطرة والتي اكتسبها اكتسابا، والتي يتوهمها الشاعر فيه."[31]

[29] - المصدر السابق، ص 397

[30] - الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح: محمد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة – القاهرة، دط، دت، ص: 173.

[31] - غازي طليمات، عرفان الأشقر، الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، دار الارشاد – حمص، ط1، 1992، ص، 160.

2- تعريف الذّمّ

2- 1- الذّمّ لغةً:

جاء في لسان العرب في مادّة (**ذَمَمَ**): الذّمُّ: نقيض المدح. والعرب تقول: ذمَّ يذُمُّ ذَمًّا وهو اللّوم في الإساءة..... والذّامُّ مُشَدَّدٌ، والذّامُ مُخفَّفٌ جميعاً: **العَيْبُ**. ... وذُمَّ الرّجُلُ: هُجِيَ، وذُمَّ: نُقِصَ.

وجاء في المعجم المفصَّل في اللّغة والأدب، الذَّمُّ: هو العيب واللّوم[32].

2- 2- الذّمُّ اصطلاحا: لم تذكر المدوّنات العربية في النقد والأدب مصطلح "**الذّم**" ضمن أغراض الشعر العربي المعروفة التي حدّدها النّقّاد والبلاغيون في مؤلَّفاتهم القديمة؛ مثل: قدامة بن جعفر (ت337هـ – 948م) وأبو هلال العسكري (ت 395هـ – 1004م) وابن رشيق(ت 456هـ – 1063م) الذي يقول في كتابه "العمدة": "يجمع أصناف الشعر أربعة: **المديح، والهجاء**، والحكمة، واللهو، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون؛ فيكون من **المديح** المراثي والافتخار والشكر، ويكون من **الهجاء** الذّم والعتاب والاستبطاء، و[يكون] من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ، ويكون من اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر والمخمور."[33]، ومن خلال مفهوم ابن رشيق لأصناف الشعر هذا وغيره مما جاء في المدوَّنات العربية

[32] - المعجم المفصّل في اللغة والأدب، إيميل بديع يعقوب وميشال عاصي، دار العلم للملايين – بيروت، المجلد1، ط1، 1987، ص: 646.

[33] - ابن رشيق، العمدة، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل – بيروت، ج1، ط5، 1981، ص: 121.

القديمة، يتضح أنّ الذّم ليس غرضاً شعرياً بل هو فرْعٌ من غرض الهجاء، أو هو نوع من الهجاء، والذّمُّ أكثر درجات الهجاء إيذاءً للمهجوِّ من العتاب والاستبطاء.

3- الذّمُّ في الشعر العربي:

لمعرفة المكانة التي احتلها **الذّم** في الشعر العربي، سنحاول التعرّفَ على مكانة **الهجاء** في الشعر العربي القديم؛ لكون **الذّم** فرعٌ منه، وهذا ما أشار إليه ابن رشيق القيرواني، بقوله: " فيكون من **المديح** المراثي والافتخار والشكر، ويكون من الهجاء الذّم والعتاب والاستبطاء"[34]، والذّمُّ أشدُّ ألماً من فروع الهجاء الأخرى، لكونه يتَّخِذُ منَ التحقير والإقذاع وسيلة للانتقاص مِن مَهْجُوِّهِ والحطِّ من قيمته، وقد يتجاوز ذلك إلى الفحش وهتك الأعراض.

عُرِف الهجاءُ في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، وكان رُكناً من أركان الشعر الأساسية؛ حتى قيل: "إنّ بيتاً من الشِّعر في الجاهلية كان يخفضُ قوماً ويرفع آخرين"[35].

بعد مجيء الإسلام بتعاليمه السمحاء، لم يستمر الشعراء في تناول الهجاء على صورته الجاهلية القبيحة؛ فخفَتَ وقلَّ الاهتمام به، لكن هذا الوضع لم يَدُمْ طويلاً، إذ بوصول الأمويين إلى الحكم، وانتقال الخلافة إليهم، عاد الشعراء لتناول شعر الهجاء بصورة أعنف مما كان عليه في الجاهلية، لأسباب كثيرة، منها الظروف السياسية، فظهرت الأحزاب

[34] - المصدر السابق، ص:121.

[35] - أحمد حسن بسج، الأخطل شاعر بني أمية، دار الكتب العلمية – بيروت، دط، دت، ص: 54.

السياسية الداعمة لهذا الطرف أو ذاك، وانبرى الشعراء للدفاع عنها ومهاجمة خصومها، وكذلك كان للأوضاع الاجتماعية الجديدة التي أدّت إلى عودة العصبية القبلية للظهور، "وكانت هذه العصبيات هي كل حياة القوم الاجتماعية وما يتّصل بها من لهوٍ وعبَثٍ، فقد أمضوا أوقاتهم هناك يُثيرونها ويتحدّثون فيها"[36]، وهذه العصبية كان لها دورُها في إذكاءِ غرض الهجاء، "ونفَذَ في أثناء ذلك جرير والفرزدق من جهة وجرير أيضاً والأخطل من جهة ثانية إلى أهاجٍ كانت تُلْقى في مسرح المِرْبَد، وكانت تأخذ شكلَ لُعبةٍ طريفة يتجمع الناس لمشاهدتها والفرجة عليها"[37].

*****

4- المدح في شعر الأخطل

يرى الكثير من الدارسين والنّقاد – قديما وحديثاً– أنّ **الأخطل** هو أحد أشهر شعراء **المدحِ**، "بل أنّه فاق الشعراءَ العرب في مديحه الملوك، وأنّ قصيدةَ المدحِ التي تطوّرت كثيراً في العصر الأموي كان للأخطل قصبُ السبق في هذا التطور، ولجودة مدائحه كانت مصدرَ إعجاب الممدوحين من الخلفاء والولاة والأمراء"[38] ولهذه الصفات التي ميّزت شعر

[36] - شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص:101.

[37] - م، نفسه، ص:113.

[38] - عبادة حرز حبيب، بنية قصيدة المدح الفنية عند الأخطل، مجلة كلية التربية الأساسية بالجامعة المستنصرية، ع45، 2005، ص:37.

المدح عنده، أُعجب به خلفاءُ بني أُميّة وقرّبوه إليهم، بل جعلوه شاعرهم الخاص، فاستحقّ بذلك لقبَ **شاعر بني أمية**.

أمّا بِنيةُ قصيدةِ المديح عند الأخطل فهي امتدادٌ لمدرسة الصَّنْعةِ الجاهلية، "فقد اعتنى عناية مُميَّزة بمقدِّماته الطّلَلِيَّةِ، ... فكثيرٌ من عناصر المقدِّمة الطّللية تبدو واضحة في مقدّمات قصائده، فقد استهلَّ نصْفَ مدائحه بالحديث عنها"[39]. وما قيل عن المقدِّمة الطللية، يُقالُ عن المقدِّمة الغزلية عند الأخطل، فهو يستهلُّها استهلال الجاهليِّين، مثلما نجد ذلك في القصيدة التي يمدح فيها "يزيد بن معاوية" والتي مطلعها[40]:

بانتْ سعادُ ففي العيْنَيْنِ تسهيدُ ** واستَحْقَبَتْ لُبَّهُ، فالقلْبُ مَعْمودُ

فتأَثُّرُهُ بالجاهليّين واضح، وخاصّة بالشاعر "كعب بن زهير" في قصيدته المشهورة التي يمدح فيها الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – والتي مطلعها:

بانتْ سعاد فقلبي اليومَ متْبولُ ** مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفدَ مكْبُولُ.

كما أنّنا عند قراءتنا لقصائد **المدح**، أو التي **تخلّلها المدح** في شعر الأخطل، نجده ينوِّع في ممدوحيه؛ فيمدح الأشخاصَ: كالحكّام؛ من خلفاء وأمراء وولاّةٍ، وشعراء وأجوادٍ،

[39] - أحمد جمعة فهيد الخواطرة، توظيف الإسلام في قصيدة المديح في العصر الأموي، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الأردن، 2003، ص:148.

[40] - الديوان، ص: 77.

....ويمدح الجماعة؛ كالقبيلة والعشيرة. وللتّعرُّف على شعر المدح عند الأخطل، نحاول أن نقسِّمَه إلى قسميْن: المدح الشخصي، والمدح الفردي.

4- المدح الشخصي

4- 1- مدح الخلفاء والأمراء:

أكثرُ شعرِ المدح عند الأخطل كان في مدح الأمويّين وُلاَّةِ نِعْمته، وحماةِ قبيلته، وفي **مدحه** لبني أميّة نراه يجمع بين مدح الشخص ومدح الجماعة على نحو ما جاء في قصيدة "**خَفَّ القطينُ**" التي مدح فيها **عبد الملك بن مروان**، ومدح كذلك الأمويين، وكثيراً ما يمزج هذا المدح بأغراض شعرية أخرى؛ كالهجاء والفخر والغزل، و...

4- 1-1- مدح عبد الملك بن مروان:

عند قراءاتنا لشعر المدح عند الأخطل الذي خصَّ به الأمويين، وجدنا أنّ الشاعر قد قال أشهر **قصائده المدحية** في الخليفة عبد الملك بن مروان، مع أنّه ليس أوّل من مدح منهم، ومن أشهر هذه القصائد المدحية التي مطلعها:

"**خَفَّ القطينُ** فراحُوا منكَ أو بَكَرُوا ** وأزْعجتْهُمْ نَوًى في صَرْفِها غِيَرُ [41]:

ثمَّ يواصلُ قولَهُ:

[41] - الديوان، ص ص: 100 - 105.

كأنّني شارِبٌ، يَوْمَ اسْتُبِدَّ بهِمْ ** مِن قَرْقَفٍ ضَمِنَتْها حِمْصُ أو جَدَرُ

ثمّ ينتقل مادحاً:

إلى امرئٍ لا تُعَدِّينا نوافِلُــهُ ** أظْفَرَهُ اللهُ فَلْيَهْنَا له الظَّفــرُ

الخائضِ الغَمْرَ والمَيْمُونِ طائرُهُ ** خليفة اللهِ يُسْتَسْقَى بهِ المطرُ

وما الفُراتُ إذا جاشتْ حوالِبُهُ ** في حافَتَيْهِ وفي أوساطه العُشَرُ

وذَعْذَعَتْهُ رياحُ الصيفِ واضطربَتْ ** فوقَ الجآجِئِ مِن آذِيّهِ غُدُرُ

يوماً، بِأجْوَدَ منهُ، حين تسألُــهُ ** ولا بأجْهَرَ منه حين يُجْتَهَــرُ

فلم يكنْ طاوِياً عنّا نصيحَتَــهُ ** وفي يديْهِ بدُنيا دوننا حَصَـرُ

فهو فِداءُ أميرِ المؤمنـــينَ، إذا ** أَبْدى النّواجِذَ، يومٌ باسِلٌ ذَكَرُ

مُفْتَرِشٌ كافتِراشِ اللّيْثِ كَلْكَلَهُ ** لِوَقْعَةٍ كائنٍ فيها لهُ جَـــــزَرُ

يَغْشى القَناطِرَ يبنيها ويَهْدِمُها ** مُسوَّمٌ، فوقه الرَّاياتُ والقَتَرُ

استهلَّ الأخطل رائيته بالغزل التقليدي، فأطال فيه، وأجاد مُتخيِّراً أجمل الصوَّر والمعاني ذاكراً في ذلك الخَمْرةَ والرِّحلةَ مُتَتَبِّعاً سنّةَ القدامى، ثم خَلَصَ إلى المدح بطريقة رائعة؛ فنجده يمدح الخليفة بأجلِّ الصِّفات والخصال الحميدة الدّالةِ على الجود والسخاء والعظمة؛ حيث شبَّهَهُ بالفراتِ والغدير في سخائه، وبأنَّ كلَّ الهموم تزول عند اللُّجوءِ إليه ولم يقف الأخطل عند ذلك فقط، بل تعدّى إلى وصف شجاعته مفصلاً الحديث عن حربه ومهارته في قيادة

جيوشه، وعن بطشه وقوة صلابته ومراسه، ومن قوله: " مُفْتَرِشٌ كافتِراشِ اللّيْثِ كَلْكَلَهُ"، وقوله: " مُسوَّمٌ، فوقه الرَّاياتُ والقَتَرُ"، ففي الأولى شبَّهَهُ باللّيث لشجاعته وبسالته في أرض المعركة، وفي الثانية كناية عن بطشه وجبروته ضد أعدائه.

يستمدُّ الأخطل صفات ممدوحيه من الموروث الجاهلي؛ فهو يصف ممدوحه بالكرم والجود والشجاعة وحسن قيادة الجيش، كما يوظِّف المعاني الجاهلية في مدحه؛ كقوله: "خليفة اللهِ يُسْتَسْقَى بهِ المطرُ"، فهو يدعو لممدوحه بالسُّقيا على عادة الجاهليّين، وكثيراً ما يكرِّرُ هذه المعاني والتعابير، كقوله[42]:

"خليفةُ الله، **يُسْتَسْقى بسُنَّتِهِ** ** الغَيْثُ من عند مُولي العلمِ مُنْتَخِبُ"

وقوله[43]:

"**سقى اللهُ أرضاً**، خالدٌ خيْرُ أهلها ** بِمُسْتَفْرَغٍ باتتْ عزاليهِ تَسْحَلُ"

ومن خلال هذه الأمثلة وغيرها في مواضع المدح عند الأخطل، يتَّضِحُ "أنَّ الأخطلَ كان حريصاً على إحياءِ موضوعات المدح الجاهلي والامتداد بها، والزِّيادة في طاقاتها الفنية ولا سيّما حين يدعو للممدوح بالسُّقْيا أو حين يُشيدُ بقوّة الممدوح، وسِعةِ جودِهِ"[44].

[42] - الديوان، ص:

[43] - الديوان، ص:229.

[44] - عبادة حرز حبيب، بنية قصيدة المدح الفنية عند الأخطل، ص: 49.

4- 1- 2- مدح يزيد بن معاوية

أوَّلُ شخصية أموية مدحها الأخطل هو "يزيد بن معاوية"، حيث تمثَّلَ مدحه له في أربعة قصائد، كانت واحدة منها في الرِّثاء، وهذه القصائد مهّدت الطريق لحياة الأخطل السياسية، ليتربّع على عرش الشعراء في البلاط الأمويّ، فمن قصيدة طويلة، استهلّها الشاعر بالغزل، راح يَكيلُ المديحَ ليزيد بن معاوية، قائلاً:[45]

....

– أمّا يزيد، فإنّي لستُ ناسِيَهُ ** حتّى يُغَيِّبَني في الرّمْسِ ملْحودُ

جزاكَ ربُّكَ عن مُستفْرَدٍ، وَحَدٍ ** نفاهُ عن أهله جُرمٌ وتشريـــدُ

مُسْتَشْرَفٌ قد رماه الناسُ كلُّهُم ** كأنّه من سَمومِ الصيف سَفُّودُ

جزاءَ يوسفَ إحساناً ومغفرةً ** أو مثل ما جُزْيَ هارونُ وداوودُ

أو مثل ما نال نوحٌ في سفينتهِ ** إذِ استجابَ لِنوحٍ، وهو منجودُ

أعطاهُ من لذّةِ الدنيا وأسكنهُ ** في جنّةٍ نِعمةٌ فيها وتخليـــــــدُ

فما يزال جَدَا نُعْماكَ يُمْطِرُني ** وإنْ نأيْتُ وسَيْبٌ منكَ مرْفـــودُ

فبعد فراغِ الأخطل من الغزل، يستكمل الحديث في مدح يزيد بن معاوية مصرِّحاً بأنّه لن ينسى فضله وكرمه عليه حتّى يُدْفنَ في القبر، مستخدماً في مدحه هذا ألفاظاً إسلامية؛ كذكره لأسماء الأنبياء: يوسف وهارون وداوود ونوح مُشبِّهاً قصَّته بقِصّة يوسف عليه السلام

[45] - الديوان، ص:79.

التي تشترك في النجاة من الهلاك؛ إذ نجا الأخطل من قطع لسانه بفضل يزيد بن معاوية الذي تدخّل عند أبيه بعد أن طلب لسان الأخطل لمّا هجا الأنصار، كما استجاب الله لنوح عليه السلام لمّا نجّاه من الطوفان.

ويستطرد في مدح يزيد وكرمه بقوله: "فما يزال جدا نعماك يمطرني" مستخدماً صورة فنّيةً؛ حيث شبّهَ فضْلَ يزيد عليه بالمطر المنهمر الذي يحمل معه الخير؛ فحذف المشبّهَ به، وأبقى على قرينة تدل عليه، وهي الخير على سبيل الاستعارة المكنية.

وقال في قصيدة أخرى، استهلّها بوصف الظَّعْن والرَّحيل[46]:

....

ولولا يزيدُ ابنُ الملوكِ وسَيْبُهُ ** تجلَّلْتُ حدباراً مِنَ الشرِّ أنْكدَا

وكم أنقذْتني مِن جرورِ حبالكم ** وخرساءَ لو يُرمَى بها الفيلُ بَلَّدَا

ودافعَ عنّي يومَ جِلِّقَ غمْرةً ** وهمًّا يُنسيني السُّلافَ المُهوَّدَا

.....

أبا خالدٍ دافعتَ عنّي عظيمةً ** وأدركْتَ لحمي قبل أنْ يتبدّدَا

وأطفأْتَ عنّي نارَ نُعمانَ بعدما ** أغذَّ لأمرٍ عاجزٍ وتجرَّدَا

ولمَّا رأى النعمانُ دوني ابنَ حرَّةٍ ** طوى الكَشْحَ إذْ لم يستطعني وعرَّدَا

ولاقى امْرءًا لا يَنْقُصُ القومُ عهدَهُ ** أمرَّ القُوى دون الوُشاةِ وأحصدَا

[46] - الديوان، ص،ص:74-77.

أخَا ثِقةٍ لا يَجتويهِ ثوِيُّهُ ** ولا نائباً عنه إذا توَدّدَا

.....

فأقسمْتُ لا أنسى مدى الدّهر سَيْبَهُ ** غداةَ الليالي ما أساغَ وزوّدَا.

بعد مقدّمة عن الظَّعْنِ والرّحيل، ينتقل الشاعر إلى مدح "يزيد بن معاوية"، فيُطيل في المدح، ويكرِّرُ المعاني، وعندما نتأمل معاني المدح، نجدها لا تخرج عن الوصف ب العطاء والجود: "ولولا يزيدُ ابنُ الملوكِ و**سَيْبُهُ**"، و"فأقسمْتُ لا أنسى مدى الدّهر **سَيْبَهُ**" فالسَّيْبُ هو العطاء، كما يصفه بالشهامة وإغاثة الملهوف والدفاع عن الضّعيف: "وكم أنقذْتني مِن جرورِ حبالكم"، "ودافعَ عنّي يومَ جِلِّقَ غمْرةً"، "أبا خالدٍ دافعتَ عنّي عظيمةً" وغيرها من التعابير الدّالة على ذلك.

4- 2- مدح الولاة:

4- 2-1- مدح بِشْر بن مروان[47]

إنّي دعاني إلى بِشْرٍ فواضِلُهُ ** والخير قد عَلِمَ الأقوامُ مُتَّبَعُ

يا بِشْرُ لوْ لمْ أكنْ منكم بِمَنْزِلةٍ ** أَلْقى يديْهِ عليَّ الأزْلَمُ الجَذَعُ

أنتم خِيارُ قُرَيْشٍ عند نِسبتهم ** وأهْلُ بَطْحائها الأثْرَوْنَ والفَرَعُ

أعطاكُمُ اللهُ ما أنتم أحقُّ بِهِ ** إذا الملوكُ على أمثالِهِ اقترعُوا

ليسوا إذا طَرَدوا يَنْمى طريدُهمْ ** ولا تنالوا أكُفُّ الناسِ ما مَنَعُوا

[47] - الديوان، 204.

أليومَ أُجْهِدُ نفسي ما وسِعْتُ لكمْ ** وهل تُكلَّفُ نفسٌ فوق ما تَسَعُ.

لا يخرج الأخطل في مدحه لِبِشْرٍ بن مروان عن الصِّفات الجليلة والخلال الحميدة؛ كالجود والسخاء وأنَّ الخير أصْلٌ فيكم، وأنّ نَسَبَكم شريف مُمْتَدٌّ، وأنَّ الخِلافةَ هِبةٌ من الله؛ هذه الصِّفات الجليلة وغيرها، هي مجال المدح عند الأخطل؛ وهي امتدادٌ للمدح الجاهلي إلاَّ بعض المعاني الجديدة؛ كهبة الخلافة للأمويّين من الله.

4- 2- 2- مدح الحجّاج بن يوسف

قال يمدح الحجّاج بن يوسف[48]

فعليكَ بالحجّاجِ لا تَعْدِلْ بهِ ** أحداً، إذا نزلتْ عليكَ أُمـــورُ

ولقد علمتَ وأنتَ أعْلَمُنا بهِ ** أنَّ ابْنَ يوسُفَ حازمٌ منصـــورُ

طلَبَ الأزارِقَ بالكتائبِ إذْ هوَتْ ** بِشبيبِ غائلةِ النّفوسِ غَدُورُ

يرجو البقيةَ بعدما حَدَقَتْ بـــهِ ** فُرَطُ المنيةِ يُحصُبٍ وحُجـورُ

يشيد الشاعر في هذه الأبيات المُجتزَأَةِ من قصيدة يمدح فيها الحجّاج بن يوسف بأنّه الأقدر والأجرأُ على مواجهة خصوم الأمويين، وهم كُثْرٌ، مثل الأزارق (الأزارقة وهم فرقة من الخوارج)؛ لما يتّصف به من صبْرٍ وشجاعة (حدّقتْ به فُرَطُ المنيةِ).

ما يمكن ملاحظته في مدح الشاعر للولاة، كانوا من الأسرة الحاكمة أو من خارجها هو برودة العاطفة، وهذا شيء طبيعي لاختلاف الدوافع.

[48] - الديوان، ص: 117،118.

5- مدح القادة والأجواد

5-1- مدح عِكرِمة الفيّاض

*- لم يقتصر المدح الشخصي عند الأخطل على مدح الخلفاء والأمراء وحاشيتهم، بل تعدّاه إلى فئاتٍ أخرى؛ كالأجواد من الناس، وفي هذا الإطار نجده يمدح **عِكرِمة الفيّاض** أحدَ أجوادِ العربِ في زمن الخليفة **سليمان بن عبد الملك** (ت99هـ)، وخصّه بقصيدة طويلة، نجتزئُ منها الأبياتِ التاليةَ التي نَظَمَها الشاعر الذي شملَهُ جودُ وكرمُ عِكْرِمة الفيّاض.

في قصيدة طويلة قالها الأخطلُ في مدح **عِكْرِمَة الفيَّاضِ** أحَدِ أجواد العرب في عصره. وبعد مقدِّمةٍ طلَلِيةٍ غزليةٍ، ينتقل إلى المدح، فقال[49]:

إنَّ ابْنَ رِبعيَّ كفاني سَيْبُهُ ** ضِغَنَ العدوِّ ونَبْوَةَ البُخّالِ

أَغْلَيْتَ حين تواكلتْني وائلٌ ** إنَّ المكارمَ عند ذاكَ غوالِي

... ...

إنّ اللّئيمَ، إذا سألْتَ بَهَرْتَهُ ** وترى الكريمَ يَراحُ كالمختالِ

وإذا عَدَلْتَ به رجالاً لم تجِدْ ** فَيْضَ الفُراتِ كراشِحِ الأوشالِ

... ...

ليستْ عَطِيَّتُهُ، إذا ما جئْتُهُ ** نَزْراً وليس سِجالُهُ سِجالِ

فهو الجوادُ لِمن تعرَّضَ سَيْبَهُ ** وابْنُ الجوادِ وحاملُ الأثقالِ.

[49] - الديوان، ص:257،258،259.

عندما نتأمّلُ أبيات الشاعر هذه، نجدُهُ يصف هذا الجَوادَ بأنبل الصفات التي اعتاد العرب على وصف الممدوح بها؛ كالكَرَمِ الوفير والعطاء الغزير الذي يكفيه شماتة الأعداء وشُحَّ البُخَّالِ، وهذا الكريم ابن الكريم لا يَعْدِلُهُ أحدٌ في جوده وسخائه.

6- المدح الجماعي

6- 1- مدح بني أُميّة:

غَلَبَ غرضُ المدح على شعر الأخطل، فجاءت أشهر قصائده في غرض المدح، ولمّا كانت السياسية مواتية اتّصل الأخطل ببني أمية طلباً للتكسّب وحماية لقبيلته تغلب، "شُغل الأخطل بقومه شغلاً اضطرّه إلى موالاة الأمويين، ومناهضة القيسيين، وقد انضمَّ إلى بني أمية وهم بحاجة إلى شعراء ينشرون آراءهم ويردّون هجمات أعدائهم؛ وانضمامه إليهم يعني، في نظر الجميع، انحيازاً إلى سياسة معينة، وشعره من ثم هو شعر تلك السياسة هو شعر التأييد التام في إطار المدح على سنة التقاليد العربية القديمة؛ والمدح يوجه إلى الخليفة وانسابه وولاته وعماله وقوّاده"[50]. **وكما** أشرنا سابقاً فإنّ أكثر مدح الأخطل قاله في بني أمية، ومن ذلك ما جاء في قصيدته الشهيرة "**خفَّ القطين**" التي مدح فيها الخليفة عبد الملك بن مروان وبني أُميّة، حيث يقول مادحاً بني أميّة[51]:

حُشْدٌ على الحقِّ عَيَّافُو الخَنَى أُنُفٌ ** إذا أُلَمَّتْ بهمْ مكروهةٌ صبَروا

[50] - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل – بيروت، ط1، 1986،ص: 470.

[51] - الديوان، ص: 105،106.

وإنْ تجدَّتْ على الآفاق مُظْلِمـــةٌ ** كان لهم منها مَخْرَجٌ ومُعْتَصرُ

أعطاهُمُ الله جَدًّا يُنصَرون بهِ ** لا جَدَّ إلاَّ صغيرٌ، بَعْدُ، مُحْتَقَرُ

لم يَأْ شَروا فيه، إذْ كانوا مَوالِيَهُ ** ولو يكونُ لقومٍ غيرِهِمْ، أَشِـرُوا

شُمْسُ العَداوَةِ، حتّى يُسْتَقادَ لهمْ ** وأعظَمُ النّاسِ أحلاماً إذا قَـدَرُوا

لا يستقِلُّ ذوُو الأضغانِ حربَهُمُ ** ولا يُبيّنُ في عيدانهمء خَوَرُ

همُ الذين يُبارون الرياحَ، إذا ** قلَّ الطعامُ على العافين أو قَتَرُوا

بَني أُميَّةَ، نُعْماكُمْ مُجَلَّلَـــةٌ ** تَمَّتْ، فلا مِنَّةٌ فيها، ولا كَـدَرُ

عند تتبعنا لشعر **المدح** عند الأخطل، نجد أنَّ "الأخطل ينوِّع في مديحه، ولكنّ تنويعه يَنْصبُّ في أكثره على الإفادة من العناصر القديمة، فهو يمدح بالخصال المعروفة عن العرب من كرم وشجاعة ووفاء ومروءة وحِكمٍ وصبْرٍ على المكروه، ويقف في أكثر مديحه عند ذلك"[52].

وفي هذه الأبيات السابقة نجد الأخطل لا يخرج عن هذه الخصال الحميدة المعروفة عند العرب، فقد مدح بني أُميَّة بالثّبات على الحقّ والأنفة والصّبر على المكاره وغيرها من الصّفات الجليلة والخلال الحميدة.

غير أنّ ما يلفت النظر، أنّ الأخطل لم يكتفِ بهذه الصفات الحميد المعروفة عند العرب، بل ضمّنها تأييدَهُ السياسي لبني أُميّة، "إذاً تتضمّن مدائح الأخطل دعوة سياسية إلى تأييد

[52] - شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص:207.

الأمويين والالتفاف من حولهم، كما تُرضي الممدوحين ويرون لها علاقة بتحقيق أهدافهم السياسية"[53].

6- 2- مدح قريش

قال الأخطل يمدح قريشاً:[54]

لقد مدحتُ قريْشاً واستغثتُ بهمْ ** إذْ ما أنامُ إذا صُحبتي هجعُوا

وإذا وَشَى بي أقوامٌ، فأدركني ** رهْطُ الذي رفعَ الرحمنُ فارتفعُوا

في جَنّةٍ هي أرواحُ الإلَهِ، فما ** يُفزِّعُ الطيرَ في أغصانها فَزَعُ

كانوا إذا الريحُ لفَّتْ عُشبَ ذي إضَمٍ ** غيْثَ المراضيعِ، ما منُّوا وما منعُوا

والمُطعمين على ما كان مِن إزَمٍ ** إذا أراهيطُ ملُّوا ذاك أو خضعُوا.

ها هو الأخطل يُشيد بمكارم قُريْش ومحامدها؛ من إغاثة الملهوف: "لقد مدحتُ قريْشاً واستغثتُ بهمْ"، وإشاعة الأمن:"فما يُفزِّعُ الطيرَ في أغصانها فَزَعُ"، وهم إذا أعطوا لا يمُنُّون، وإذا طُلِبَ منهم لا يَمنعون: "ما منُّوا وما منعُوا"؛ فاستحقّوا المكانة التي ميَّزَهُم الله بها عن غيرهم من الناس، ورفعهم إليها: "فأدركني رهْطُ الذي رفعَ الرحمنُ فارتفعُوا".

[53] - أحمد حسن بسج، الأخطل شاعر بني أمية، ص:53.

[54] - الديوان، ص:203،204.

في ختام هذا الفصل، يمكن أن نَخْلُصَ إلى أنَّ **المدحَ** عند الأخطل حافظ على أهمِّ الصفات التي كان الشعراء يحرصون على إضفائها على ممدوحيهم، منذ الجاهلية؛ كالكرم والجود، والقوّة والشجاعة، والحِلم، وغيرها من الصِّفات الجليلة والمثالب الحميدة.

– كذلك جاء **المدح** عند الأخطل شاملاً، فهو لم يقتصر على ممدوحٍ بعينه، أو قبيلة أو جماعة من الناس، بل جاء منوَّعاً؛ شمل الأفرادَ على مختلف مراتبهم ومنازلهم؛ من الخليفة والأمير، والشاعر، والجَوَادِ، والمرأة والرجل....

– كما نلاحظ أنّ الأخطل شديدُ الحرص على بدْءِ **قصائده المدحية** بمقدّمة طللية أو غزلية، وربما كانت المقدمة الطللية هي الغالبة؛ "لقد حرص الأخطل على الإكثار من المقدمات الطللية في افتتاحيات قصائده المدحية، فقد شغلت مساحة واسعة، بيد أنّ هذه المقدمة على الأغلب لم تخرج على ما بناه الشعراء الجاهليون"[55]، أو يبدأ بالحديث عن الظّعن أو الرحلة، كما نجد ذلك في قصيدته الشهيرة في مدح الخليفة الأموي **عبد الملك بن مروان** التي يستهلها بقوله[56]:

خَفَّ القَطِينُ فراحُوا مِنْكَ أو بَكَرُوا ** وأَزْعَجَتْهُمْ نَوًى في صَرْفِها غِيَرُ.

– كذلك لاحظْنا عند قراءاتنا لقصائد **المدح** عند الأخطل، أنّه شديد الحرص على مدح قومه (قبيلة تغلب) عند مدحه الخلفاء والأمراء؛ فهو لا يترك مناسبة مدح خليفة أو أمير إلاّ

[55] - عبادة حرز حبيب، بنية قصيدة المدح الفنية عند الأخطل، ص:38.

[56] - الديوان، ص: 100.

ويتغنّى بمفاخر قبيلته وعشيرته، وخاصة في قصيدة "خفَّ القطين" التي مدح فيها عبد الملك بن مروان، "ومن هنا كانت قصيدة الأخطل في عصر عبد الملك، ونقصد قصيدة المديح، شَرِكةً بين عبد الملك وبين قوم الأخطل من تغلب، فهو يمدحه ويتعرّضُ لانتصاراته وهو يمدح قومه أو بعبارة أخرى يفخر بهم، ويتعرّض لما قدّموه لعبد الملك. ونراه يخلص من ذلك إلى حروبهم مع قَيْس، فيهجوها هجاءً مرًّا"[57].

– قصيدة المدح عند الأخطل تمتاز بتعدُّد أغراضها، وبذلك هي صورة للقصيدة الشعرية العربية القديمة التي "تمتاز بتعدُّدِ أغراضها، ويُعدُّ شعر المدح ركناً أساسياً من أركانها، حتّى أجمع العلماء القدماء بالشعر على أنه وُضِعَ على أربعةِ أركانٍ: مدح رافع، أو هجاء واضع، أو تشبيه مصيب، أو فخر سامق"[58].

[57] - شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص:136.

[58] - حسين علي الزعبي، معايير شعر المديح عند النقاد العرب القدماء، مجلة جامعة دمشق، مج 34، ع1، 2018، ص: 35.

الفصل الثّاني

الذّم في شعر الأخطل

- توطئة

لم يرد **الذّمّ** في الشعر العربي غرضاً مستقلاً بذاته بل جاء كفرعٍ من فروع الهجاء؛ ولهذا سنتناول مصطلحَ **الهجاءِ** في شعر الأخطل، ونعني به ما جاء بمعنى **الذّمِّ** الذي هو هجاءٌ أشدُّ إيلاماً من أنواع الهجاء الأخرى، وهذا ما أشار إليه ابن رشيق القيرواني في كتاب "العمدة": "فيكون من المديح المراثي والافتخار والشكر، ويكون من **الهجاء الذّم** والعتاب والاستبطاء"[59]، ومعنى هذا أنّ الذّمَّ هجاءٌ.

الذّمّ في شعر الأخطل تنوّع بين الذّم الشخصي؛ أي ذم الأفراد، والذّمّ الجماعي؛ ومنه ذم القبيلة، أوفئة أو طائفة؛ أي جماعة من الناس؛ فهجاؤه الشّخصي كان أكثرُه موجَّهاً لجرير خصمه وخصم قبيلته، وكذلك هجاؤه لِبعضِ زعماء القبائل المتخاصمة مع قبيلته (تغلب)؛ كهجائه لِـ "زُفَرَ" زعيم القيسيّين، وكذلك هجاؤه للنّساء، ومنهنَّ "الدَّلْماء"، وهي شاعرةٌ تَغْلِبِيَّةٌ،.. أمّا الهحاء الجماعي فأغلبُهُ وجّهَهُ للقبائل المتخاصمة مع قبيلة تغلب، أو للمناوئين لسياسة بني أمية، كالشيعة والخوارج والزّبيْريِّين؛ لأنّ الحياة الجديدة في عهد بني أُمَيّة حملت معها المؤثِّرات الدينية التي أخذتها عن صدر الإسلام؛ "فالحياة الدّينيّة شديدة الصِّلة بحياة السياسة التي جعلت الناس، في شأن الخلافة فرقاً وأحزاباً أهمّها الأمويون، والشيعة، والخوارج، والزبيريون"[60].

[59]- ابن رشيق، العمدة، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، ص: 121

[60] - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص: 316.

1- الهجاء الشخصي

الهجاء الشخصي، أو الهجاء الفردي؛ وفيه يتناول الشاعر مهجوَّهُ بإظهار مثالبه وعيوبه بالهَمْز واللّمز، ويبالغ في ذلك، وقد يتجاوز ذلك إلى التّحقير والتّسفيه، وهذا النوع من الهجاء هو الأصل، غير أنّ الشعراء لم يُفْرِدوا له قصائد خاصّة، وقد يتداخل مع الهجاء الجماعي، كما يرد – غالباً – ملازما للفخر والمدح. ومن الهجاء الشخصي عند الأخطل – وهو الأكثر دوراناً في شعره – هجاؤه لجرير.

1-1. هجاء جرير

كثُر التّهاجي بين الأخطل وجرير إلى درجة أنّه عندما يُذكر غرضُ **الهجاء**، يتبادر إلى الذهن ما عُرف بشعر النقائض، عند الثالوث الأموي الشّهير: جرير، والفرزدق والأخطل، ومن هجاء الأخطل لجرير قوله[61]:

ولقد جَشَمْتَ جريرُ، أمراً عاجزاً ** وأرَيْتُ عَوْرَةَ أمِّكَ الجُهَّـالاَ

وإذا سَمَا للمجدِ فرْعَا وائـــلٍ ** واستجْمَعْنا الوادي عليكَ فسالاَ

فانْعَقْ بضأْنِكَ يا جريرُ، فإنّما ** منَّتْكَ نفْسُكَ في الخَلاءِ ضَلالاَ

منَّتْكَ نفسُكَ أنْ تُسامِيَ دَارِماً ** أو أنْ تُوازِنَ حاجِباً وعِقـالاَ

وإذا وضعْتَ أباكَ في ميزانِهِمْ ** قفزتْ حديدتُهُ إليكَ، فَثالاَ

[61] - الديوان، ص: 249،250.

إنَّ العَرارةَ والنُّبُوحَ لِدارِمٍ ** والمُسْتَخِفُّ أخوهُمُ الأثقالاَ

ألمانعينَ الماءَ، حتى يَشْرَبُوا ** عِفَواتِهِ، ويُقسِّموهُ سِجالاَ

وابْنُ المراغةِ حابسٌ أعيارَهُ ** قَذْفَ الغريبَةِ ما يَذُقْنَ بِلالاَ

عندما نتأمّل هذه الأبيات، نجد أنَّ الأخطلَ قد عَيَّرَ جريراً بنعته بالهوان والجبن، وهنا يضعه، "في إطار صورة اجتماعية دقيقة تلامس كبرياء النفس وتنال من إحساسها بالسمو، وتظهره جباناً يغلبه الجبن ويقيِّده، حين يجعله راعياً هزيلاً يقوم على أمر القطيع لكنه لا يستطيع أن يزاحمَ أحداً، ولا يملك الجرأة على الاقتراب من الماء، بل هناك مَن يقذف به إلى الخلف لينتظر وينتظر لا يكاد يروي قطيعه من الحمير، أو يَرِدُ به الماءَ لأنه كلما أراد ذلك حُلِئَ عن الماء كما تُحْلَأُ الإبلُ السّائبة"[62]، لا يكتفي الأخطل بمُعَايَرَةِ جرير بالجبن والضّعف ورعاية الحمير، بل يَنْعته بِـ (ابن المَراغَة) وهذا لَقَبٌ أطلقه الفرزدق على جرير، والمراغة هي الأتان (أُنْثى الحمار)، وهو بهذا الوصف يطعنه في عِرْضِ أمِّه؛ حيث جعلها مَراغةً؛ والمراغة هي الأتان، وهي المرأ ة الفاسدة التي ترتكب الفواحش؛ "المراغة: الأتان، وقيل: الأتانُ التي لا تَمْتَنِعُ من الفُحولِ، وبذلك لقَّبَ الأخطل أُمَّ جريرٍ فسمّاه ابنَ المرَاغةِ، أي يتمرَّغُ عليها الرّجال"[63].

[62] - فاطمة تجور، أدب الطبائع في فقائض جرير والأخطل، مجلة جامعة دمشق، المجلد 29، ع(1+2)،2013، ص:87.

[63] - ابن منظور، لسان العرب، مادّة: **مَرَغَ**.

هجاء الأخطل لجرير شكَّلَ ركناً هامًّا في شعره، ولم يقتصر على قصيدة واحدة أو قصائد معيَّنَة؛ بل نجد ذلك عند فخره بقبيلته (تغلب)، فيقابل ذلك بهجاء خصومها، وخاصة القيسيّين، أو عند مدحه للخلفاء والأمراء، والترويج لسياستهم ... وقصيدة (**خفَّ القطين**) خيرُ مثال على تداخل غرض الهجاء مع غرضي المدح والفخر.

1- 2. هجاء "زُفَر" زعيم القيسيين:

من الذين نالهم هجاء الأخطل "**زُفَر**"، وهو أَحَدُ زعماء القيسية؛ وهي مجموعة كبيرة من القبائل العربية، تنتسب إلى قبيلة (قيس عيلان). كان بينها وبين قبيلة (تغْلِب)؛ وهي قبيلة الأخطل عداءٌ شديد وأيَّامٌ عديدة؛ لِذا كان الهجاءُ أهمَّ وسيلة يواجه بها خصومَ قبيلته، ومن هجاء الأخطل لِـ "**زُفَر**" قوله[64]

– وَنَجَا على جَرْداءَ ذاتِ عُلالَةٍ ** **زُفَرٌ** وكان لدَا الطِّعانِ فَرُورَا

– هَربًا وغادرَ مِنْ نساءِ هوازِنٍ ** مثلَ المها خُرُداً أوانِسَ حورَا

– يهْتِفْنَ أين ذوُو الحمِيَّةِ أينَ هُمْ ** أمْ مَنْ يَغَارُ فلمْ يَجِدْنَ غَيُورَا

هذه أبياتٌ مُجتزأةٌ من قصيدة طويلة، ورَدَ ذِكرها في (نقائض جرير والأخطل) لأبي تمّام، وهذه القصيدة لم يَرِدْ ذِكرها في الديوان.

[64] - أبو تمام، نقائض جرير والأخطل، تعليق: أنطوان صالحاني، المطبعة الكاثوليكية – بيروت، 1922، ص: 118.

يقول الأخطل إنَّ زُفَرَ لمّا اشتدّت المعركة، وحَمِيَ وَطِيسُها فَرَّ هارباً، وتركَ نساءَ قبيلته يصرخْنَ ويستغثْن طَلَباً للحماية وخوفاً من سَبْيِ الأعداء لهنّ، لكن لا حَمِيَّةَ ولا غيرة؛ ومعنى هذا أنّ الأخطلَ نعت زُفَرَ بأبْشعِ الصّفات، حيثُ سلَبَه صفة الشجاعة والجرأة والإقدام؛ فهو فرُورٌ من المعارك، وسلْبه صفة الحَمِيَّة والغيرة، وهي من أقدسِ الصفات لدى العربي حتّى في جاهليته؛ لأنّ النساء رمز للشرف والمروءة، وهذا الهجاء "فهو أقرب إلى الإقذاع والسّبِّ والشّتمِ وقذْفِ الأعراضِ، إنه هجاء قاتم أسود لا يُثير الضحكَ بقدر ما يُثيرُ الرّفضَ والنّفور والاستغراب"[65]

ومن المفارقات أنّ الأخطل كان قد مدحَ "**زُفَر**" قبل أنْ تَشَبَّ العداوة بين قيس وتغْلِب، وممّا مدحه به قوله[66]:

إنِّي أَظُنُّ نِزاراً سوف تَجمعُهـــــا ** بعدَ التّفرُّقِ، حربٌ شَبَّها زُفَرُ

صَلْتُ الجبينِ، رشيدُ الأمرِ، تعربُهُ ** إذا تكشَّفَ عن عِرْنينِهِ الْقَتَرُ.

1- 3- هجاء الدَّلْماء

ذكرت بعض الرِّوايات أنَّ الأخطلَ شكَا جاريةً من قومه إلى أبيها، اسمها **الدّلْماء**، وهي شاعرة أيضاً، فقال: يا أبا الدّلماءِ، إنَّ ابنتكَ تعرَّضتْ لي فاكْفُفْها. فقال له: هي امرأةٌ مالكةٌ لأمرها. فقال الأخطل[67]:

[65] - فاطمة تجور، أدب الطبائع في فقائض جرير والأخطل، مجلة جامعة دمشق، ص: 81.

[66] - الديوان، ص:186.

ألاَ أبلِغْ أبا الدلماء عنِّي ** بأَنَّ سِنانَ شاعركم قصــيرُ

فإنْ يَطْعَن فليس بذي غَناءٍ ** وإنْ يُطْعَنْ فطَعْنَتُهُ يسـيرُ

متى ما يلقني ومعي سلاحي ** يَخِرُّ على القَفَا ولهُ نَخِيرُ

واضح في هذه الأبيات أنّ الشاعر لم يكن هجاؤه مباشراً، بل هو تهديد بالهجاء، كما أنّ الشاعر استخفَّ بهذه المرأة من أن تنال منه، بينما هو قادر على إيذائها، وهذا ما تشير إليه هذه الرّواية التي تقول: "فمشى أبوها في رجال من قومه إلى الأخطل فكلَّموه، فقال: أمّا ما مضى فقد مضى ولا أزيد. وواضح ما أضمر في الأبيات وخبَّأَ، إلاّ أنه طبّق ما قاله حول العفّة، فلم يذكر العورات."[68]

1- 4- هجاء أمِّ كعبِ بن جُعَيْل

من النِّساء اللّواتي هجاهنّ الأخطل أمّ الشاعر التغلبي "كعب بن جعيل"، حيث قال[69]:

هَجَا الناسُ ليلى أُمَّ كَعْبٍ فلمْ يَدَعْ ** لها النّاسُ إلاَّ نَفْنَفاً أنا رافِعُهْ

والحقيقة أنّ الأخطل لا يتوجّه بكلامه هذا مباشرة إلى امرأة معيَّنة، بل إنّه يخاطب الشاعر "كعب بن جعيل" من خلال التعرّض إلى أمِّهِ التي تناولها الناس بالسبّ والشتم،

[67] - الديوان، ص: 180،181.

[68] - يُنظر، الأخطل شاعر بني أمية، ص:56،57.

[69] - الديوان، ص: 206.

ثم أكمل الأخطل ما لم يتناوله الناس تلميحاً وتعريضاً: "فأمّا الهجْوُ فأبلغه ما خرج مخرج التّهزُّل والتّهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض"[70]، وهي طريقة شائعة عند الشعراء قصد إيذاءِ المهجوّ؛ لأنّ بالمرأة يثير الشكوك، ويدفع إلى الفُضول لمعرفة ما اعترض.

لم يصرِّح الأخطل أنّ الناسَ ذكروا صفة معيَّنة لأمِّ كَعْبٍ، بل أشار إلى ذلك تلميحاً وتعريضاً، من خلال قوله: (فلمْ يَدَعْ لها النّاسُ إلاَّ نَفْنَفاً أنا رافِعُه)، "فصورة المهجوَّةِ في هذا البيت مشينة، والتلميح إلى الفعلِ السيِّءِ دون ذكْره صراحة يزيد من التشكيك والتقوُّل كثيراً"[71]، و(**النَّفْنَفُ**) هو الثوب الرّقيق الخفيف، ومعنى هذا أنّ الناس لم يتركوا صفة قبيحة إلاَّ وصفوا بها هذه المرأة، ثم يأتي الشاعر لِيُزيلَ ذلك الثوب الرّقيق؛ وبهذا يكون الشاعر قد عرَّى أُمَّ كعْبٍ بن جُعَيَل، وجعلها في صورة فاضحة، وفي هذا التلميح إقذاعُ وفُحشٌ أشَدُّ إيلاماً من أيِّ فعلٍ أو كلامٍ آخر؛ فرفعُ الثّوب (...إلاَّ نَفْنَفاً أنا رافِعُه) له من الإيحاءات والدلالات التي تتجاوز القيم والأعراف، ...

[70] - ابن رشيق، العمدة، ج2، ص:171.

[71] - لؤي موفق الحاج علي، صورة المهجو في شعر النقائض: مخطوط رسالة ماجستير، جامعة جرش، الأردن، 2015، ص: 92،93.

2: الهجاء الجماعي

الهجاء الجماعي هو هجاءٌ يخُصُّ به الشاعر قبيلة أو مجموعةَ قبائل، أو عشيرة أو قوماً ما، أو فئة من المجتمع، أوغير ذلك، وسلّطه عليها قصْدَ سلْبِ مجموع الخُلُق الحيِّ الذي يؤلف قومية الجماعة.

2- 1- هجاء قوم جرير

قال الأخطل يهجو جريراً وقومه[72]:

- قومٌ إذا استنبحَ الأضيافُ كلْبَهُمُ ** قالُوا لإمِّهِم: بولِي على النّارِ
- فَتُمْسِكُ الْبَوْلَ بُخْلاً أنْ تَجُودَ بِهِ ** ومَا تَبُولُ لهُمْ إلاَّ بِمِقْدَارِ
- لا يثْأَرُونَ بِقَتْلاهُمْ، إذا قُتِلُوا ** ولا يَكُرُّونَ يَوماً، عِنْدَ (إجْحَارِ)
- ولا يَزالونَ شتَّى في بُيُوتِهِمْ ** يَسْعَوْنَ مِن بيْنِ مَلْهوفٍ وفَرَّارِ
- فاقْعُدْ جرِيرُ فقد لاقَيْتَ مُطَّلَعاً ** صَعْباً، ولاقاكَ بحرٌ مُفْعَمٌ جارِ

كان من عادات العرب منذ الجاهلية أنْ يُشعلوا النار أمام منازلهم، كي يهتدي أليها عابر السبيل، أو الذي ضلّ الطريق أو تاه في الصحراء، وعادة إيقاد النار من أهم الصفات الدالة على الكرم والجود، ومساعدة المحتاج، وكان العربي حريصاً على الاتّصاف بهذه الصفات. غير أنّ **الأخطل** في هذه الأبيات يصف قوم **جرير** بأبشع الصفات التي كان يخشاها العربي؛ من البخل وعدم القدرة على الثأر لقتلاهم وعدم إغاثة الملهوف.

[72] - الديوان، ص: 166.

ولم يكتفِ **الأخطل** بتحقيره لمهجوِّه بوصفه بهذه الصفات الحقيرة، بل راح يرسم صورةً كاريكاتورية مُقْرِفةً؛ إذْ يسارع هؤلاء القوم – قوم جرير– عند سماعهم نباح الكلاب الدالة على قدوم الضيف إلى الطلب من أمهم أن تُطفِئَ النارَ، لكن ليس بسكب الماء على النار، بل بالتّبوُّل على النار وبالقَدْر الذي يكفي لإطفاء النار، ثم تُمسك بَوْلَها إذا انطفأت النّار، ولا تضيِّعه دون فائدة ...؟!! فهذه صورة مُقْرِفة مُقَزِّزة قذرة، ... فيها الكثير من الحقارة والمهانة. يُعلِّق ابن رشيق على هذا البيت:

"قومٌ إذا استنبحَ الأضيافُ كلْبَهُمُ ** قالُوا لإمِّهِم: بولِي على النّارِ"

بقوله: "قد جمع ضُروباً من الهجاء، فنسبهم إلى البخل بوقود النار، لئلاّ يهتدي بها الضيفانن ثم البخل بإيقادها إلى السائرين والسابلةن ورماهم بالبخل بالحطب، وأخبر عن قلة النار، وأنّ بولة تطفئها، وجعلها بولة عجوز، وهي أقل من بولة الشابة. ووصفهم بامتهان أمهم، وابتذالها في هذه الحال يدل على العقوق والاستخفاف، وعلى أنه لا خادم لهم وأخبر في أضعاف ذلك ببخلهم بالماء"[73]. وكذلك مثلما ورد في قصيدته الشهيرة في مدح عبد الملك بن مروان والتي عنوانها: "**خفّ القطين**"، حيث يقول[74]:

أمّا كُلَيْبُ بنُ يربوعٍ فليس لهم ** عند التّفارُطِ إيرادٌ ولا صدرُ

[73] - ابن رشيق، نقلاً عن: فاطمة تجور، أدب الطبائع في فقائض جرير والأخطل، مجلة جامعة دمشق، ص: 84.

[74] - الأخطل، الديوان: 109.

قومٌ أنابتْ إليهم كلُّ مَخزيـةٍ ** وكلُّ فاحشةٍ سُبّتْ بها مُضَرُ

الآكلون خبيثَ الزّاد وحدَهم ** والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

كُلَيْب بن يربوع هم قوم جرير. يقول الأخطل إنَّ هؤلاء القوم لِضعفهم وجبنهم، لا يستطيعون إيراد الماء، وأكثر من ذلك فهم أهل مخازٍ وفواحش، ولم تبق سبّةٌ إلاّ سُبُّوا بها؛ فالألفاظ: (المخزية، الفاحشة، سُبَّتْ، خبيث الزّاد) هي ألفاظ عيبٍ وذمٍّ، وهكذا صوَّ رَ الأخطل قومَ جريرٍ في أبشعِ صورة وأحقرها.

2- 2- هجاء القيْسيِّين:

القيسيّون أو القيسيّة هي مجموعة كبيرة جدًّا من القبائل العربية التي تنتسب إلى "قيس عيلان"، ومن بين القبائل التي كانت لها عداوة مع القيسية هي قبيلة الأخطل (تغلب)، لذا نصَّبَ الأخطل نفسه المدافع عن قبيلته، وهذا من خلال هجاء القيسية:

قال الأخطل يهجو القيْسيِّين[75]:

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ قيْساً رسولاَ فكيفَ وجدتُمُ طعْمَ الشِّقاقِ

أصبْنا نِسْوَةً منكمْ جِهاراً بلاَ مَهْرٍ يُعَدُّ، ولا سِيـاقِ

.....

ملأْنا جانبَ الثّرْثارِ منهـمْ وجهَّزْنا أُمَيْمَةَ لانطـلاقِ

[75] - الديوان، ص: 207.

ضربناهمْ على المكروهِ، حتّى حدَرْناهمْ إلى حدَثِ الرفاقِ

.....

وإلاَّ تذهَبِ الأيّأمُ، نَرْفِدْ جَميلَةَ مثلها قبل الفـــــــراقِ

في هذه الأبيات، يخاطب الشاعرُ القيسيِّين مفتخراً بيومِ الثّرثار؛ وهو يومٌ انتصرت فيه تغلب على القيسيين، فقتلوا سادتهم وقادتهم، وسبَوا نساءهم؛ وراح الأخطل يبيِّن حالة الذّلِّ والهوان التي أصبح عليها القيسيُّون بعد انهزامهم أمام قبيلة "تغلب"؛ ولكي يُمْعِنَ في ذُلِّ وهوان القيسية، راح يرسم صورة مهينة، من خلال سَبْي نسائهم:

(أصبْنا نِسْوَةً منكمْ جِهاراً ** بلاَ مَهْرٍ يُعَدُّ، ولا سِيـاقِ)

بل من خلال سبْيِ حرائر سادتهم وقادتهم؛ فَ(أُمَيْمَة) هي زوجة "عُمَير بن الحباب" أحد زعماء قيس؛ فهو شاعر وفارس مشهور، و(جميلة) هي زوجة "زُفر بن الحارث" وهو شاعر وأحد سادة قيس؛ وفي هذا تعريضٌ من الأخطل لما أصاب القيسيين من ذلٍّ وهوانٍ؛ لأنّ المرأة تمثِّل شرف القبيلة، وفي هذا التّعريض مبالغة في الهجاء، يصل حدَّ السِّباب المحض الذي هو إقذاعٌ وفُحشٌ.

*****

3- هجاء الأخطل بين الذّم والفحش

- توطئة:

جاء في لسان العرب لابن منظور، "الفُحْشُ والفحْشاءُ والفاحشة: القبيحُ مِن القول والفعل، ... وكُلُّ شيءٍ جاوز قدْرَه وحَدَّهُ، فهو فاحِشٌ"[76]، وقال "ابن رشيق": "فأمّا القَذْفُ والإفحاشُ فسِبابٌ محْضٌ، وليس للشاعر فيه إلاّ إقامة الوزن"[77]؛ ومعنى هذا أنَّ كلَّ قولٍ أو فعل قبيح هو فُحْشٌ، والسِّبابُ فُحْشٌ، وتجاوز الحدَّ في الكلام فُحْشٌ؛ وهذا الكلام القبيح، والتّجاوز في الهَجْوِ كثيرٌ منه متواترٌ في شعر الأخطل. لكنّ بعضَ النّقادِ يروْنَ أنّ الهجاء عند الأخطل لم يبلغِ الإقذاعَ والفُحشَ؛ أي أنّ الهجاءَ عند الأخطل لا يتعرض فيه إلى السّبِّ المَحْضِ وذكر عورات الناس وأعراضهم والتشهير بها؛ بتوظيف الألفاظ النّابية والعبارات البذيئة، حيث "لم يكن الأخطل والفرزدق على هذه الصورة من العنف، ارجع إلى نقائض الأخطل فستجده يستمرُّ له غير قليل من شيبه ووقاره، وكذلك الفرزدق حين يناقض أو يهجو ..... ومن هنا كانا لا يعمدان إلى السبِّ والقذف على نحو ما يعمد

[76] - ابن منظور، لسان العرب، مادّة: **فَحَشَ.**

[77] - ابن رشيق، العمدة، ج2، ص: 171.

جرير، فهما يحتشمان"[78]، وهذا ما يقوله الأخطل عن نفسه: "**ما هجوتُ أحداً قطُّ بما تستحي العذراءُ أن تَشْدَهُ أباها**"[79].

ومعنى هذا أنَّ الهجاء عند الأخطل هو للتقليل من شأن مهجوِّه والحطِّ من قدره، وليس سبًّا ولا شتماً ولا فُحْشاً، غير أنّ القراءات المتأنِّية لشعر الهجاء عنده تكشف أنّ الشاعر – من حين إلى آخر– يتعرَّضُ لِمهجوِّهِ بالإقذاعِ والفُحشِ بألفاظٍ نابية وعبارات بذيئة، وهذه نماذجٌ من شعره تُدلِّلُ على ذلك:

3- 1- في هجاء قوم جرير[80]

– قومٌ إذا استنبحَ الأضيافُ كلْبَهُمُ ** قالُوا لإمِّهِم: بولِي على النّارِ

فَتُمْسِكُ الْبَوْلَ بُخْلاً أنْ تَجُودَ بِهِ ** ومَا تَبُولُ لهُمْ إلاَّ بِمِقْدَارِ

لا يثْأَرُونَ بِقَتْلاهُمْ، إذا قُتِلُوا ** ولا يَكُرُّونَ يَوماً، عِنْدَ إجْحَارِ

ولا يَزالونَ شتَّى في بُيُوتِهِـــمْ ** يَسْعَوْنَ مِن بيْنِ مَلْهوفٍ وفَرَّارِ

فاقْعُدْ جرِيرُ فقد لاقَيْتَ مُطَّلَعاً ** صَعْباً، ولاقاكَ بحرٌ مُفْعَمٌ جارِ

ممّا كان معروفاً عن العرب في الجاهلية هو إيقاد النار أمام منازلهم، كي يهتدي أليها عابر السبيل، أو الذي ضلّ الطريق أو تاه في الصحراء، وعادة إيقاد النار من أهم

[78] - شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص: 209.

[79] - أحمد حسن بسج، الأخطل شاعر بني أمية، ص:56.

[80] - الديوان، ص: 166.

الصفات الدالة على الكرم والجود، ومساعدة المحتاج، وكان العربي حريصاً على الاتِّصاف بهذه الصفة. غير أنّ **الأخطل** في هذه الأبيات يصف قوم جرير بأبشع الصفات التي كان يخشاها العربي؛ من البخل وعدم القدرة على الثأر لقتلاهم وعدم إغاثة الملهوف. ولم يكتفِ الأخطل بتحقيره لمهجوِّه بوصفه بهذه الصفات الحقيرة، بل راح يرسم صورةً كاريكاتورية مُقْرِفةً؛ إذْ يسارع هؤلاء القوم عند سماعهم نباح الكلاب الدالة على قدوم الضيف إلى الطلب من أمهم أن تُطفِئَ النارَ.

والشّاهد – هنا – تلك الصّورة الكاريكاتورية الشّنيعة التي رسمتها هذه الأبيات، وما فيها من سُخرية وإذلال لهذه المرأة (الأمّ).

3 – 2 – في هجاء بنى كُلَيْب

وقال يهجو بني كُلَيْب؛ وهم إحدى القبائل القيسيّة[81]:

فلا تَدخُلْ بُيوتَ بنِي كُلَيْبٍ ** ولا تَقْرَبْ لهمْ أبداً رِحالاَ

ترى منها لوامعَ مُبْرِقــاتٍ ** يكَدْنَ يَنِلْنَ بالحَدَقِ الرِّجالاَ

قصيراتِ الخُطى عن كُلِّ خيْرٍ ** إلى السَّوْآتِ مُسْمِحَةً رِعالاَ

ينصَبُّ هجاء الأخطل في هذه الأبيات على نساء بني كُلَيب؛ حيث رماهنَّ بالتّحرُّشِ بالرجال لارتكاب الفاحشة: "ترى منها لوامعَ مُبْرِقــاتٍ – يكَدْنَ يَنِلْنَ بالحَدَقِ الرِّجالاَ"، فهنّ سريعات إلى السّوءات؛ لذا نجده يحذِّرُ من التّقرُّب أو دخول ديار هؤلاء القوم بكلام

[81] - الديوان، ص: 253.

فاحش: "ترى منها لوامعَ مُبْرِقاتٍ"، وهنّ النِّسوة المتبرّجات السّافرات قَصْدَ الإيقاع بالرجال؛ وليس هناك ما هو أقبح وأفحش من وصْفِ النساء يتحرَّشْنَ بالرجال.

3-3- في هجاء النّابغة الجعدي والقيسيّة

قال الأخطل يهجو النّابغة الجعدي[82]:

وما أنا إنْ أردتُ هِجاءَ قيْسٍ ** بمخذولٍ ولا خاشِيَ الجَنانِ

أهُمُّ بشتْمِهِمْ، ويكُفُّ حِلْمي ** عَوَارِمَ يعْتَلِجْنَ على لساني

خنافسُ أَدْلَجَتْ لِمَبِيتِ سُوءٍ ** وَرِثْنَ فِراشَ زانِيَـــةٍ وزانِ

وما أُمٌّ رَبَوْتَ على يديْها ** بِطاهرةِ الثِّيابِ ولا حَصانِ

كأنَّ عِجانَها لَحيا جَزُورٍ ** تَحَسَّرَ عنهما وَضَرُ الجِرانِ

في هجاء الأخطل للنّابغة الجعي، ومن خلاله هجو قبائل قيس، راح يصِف هؤلاءِ القومَ بأقبح الألفاظ: (مَبيتُ السوء)، (الزَّانية، والزَّاني)، ....

3- 4 - في هجاء عُمَير بن الحُباب أحد زعماء قيس[83]

ويومَ (بَنِي الصَّمْعاء) خاضتْ جِيادُنا ** دماءَ (بَني ذَكْوانَ) رَتْقاً وصافيَا

هجاني بَنُو الصَّمْعاءِ، والبِيدُ دونَها ** وما كان يلقى غِبْطَةً مِن هجائيَا

وما كانتِ الصّمْعاءُ إلاّ تَعِلَّـــــةً ** لِمن كان يَعْتَسُّ الإماءَ الزَّوانِـيَا

[82] - الدّيوان، ص: 345، 346.

[83] - الدّيوان، ص: 349،350.

الصَّمْعاءُ هي أمُّ عُمَيْر بنِ الحباب، وبنو الصمعاء هم قوم عمير بن الحباب الذي قُتِلَ على يد التّغلبيِّين في موقعة يوم الحشّاك، وجُزَّ رأسُه. والشاعر – في هذه النّماذج – يُمعن في إذلال مَهْجُوِّهِ من خلال تذكيره بيوم من أيّام تغلب على قوم جرير (يوم الحشّاك)، ومن خلاله نَعَتَ نساء هؤلاء القوم بالزّانيات:

"وما كانتِ الصّمْعاءُ إلاّ تَعِلَّةً** لِمن كان يَعْتَسُّ الإماءَ الزَّوانيَا".

وهذا كلامٌ قبيحٌ فاحش، لا يقبل أيَّ تأويل: "الإماءَ الزَّوانيَا".

3- 5 - في هجاء أمِّ جرير

وقال يهجو أُمَّ جرير[84]:

ما كان منزلُكَ الْمَرُّوتَ مُنْجَحِراً يا ابْنَ الْمَراغَةِ، يَا حُبْلى بِمُختارِ

جاءتْ به مُعجَّلاً عن غِبِّ سابعةٍ مِن ذي لَهالِهَ جهْمَ الوجهِ كالقارِ

أُمٌّ لئِيمةُ نَجْلِ الفَحْلِ مُقرِفـــــــةٌ أَدَّتْ لِفَحْلٍ لئيمَ النّجْلِ شَخَّـــــارِ

يُمعِنُ الأخطل – هنا – في هجائه لأُمِّ جرير بإلصاقه لها صفة اللُّؤْم: (أُمٌّ لئِيمةُ نَجْلِ الفَحْلِ مُقرِفةٌ)، ويسلبها العِفَّةَ؛ فهي (المراغة)؛ و"المراغة: الأتان، وقيل: الأتانُ التي لا تَمْتَنِعُ من الفُحولِ، وبذلك لقَّبَ الأخطل أُمَّ جريرٍ، فسمّاه ابنَ المرَاغةِ، أي يتمرَّغُ عليها

[84] - الديوان، ص،168، 169...

الرّجال"[85]، وبذلك فالأخطل يصف أُمَّ جرير بالمرأة الفاسدة التي تَهَبُ نفسها لأيِّ شخص: (أَدَّتْ لِفَحْلٍ لئيمَ النّجْلِ شَخَّارِ)؛ فهو يشكِّكُ في نسبه، ونتيجة لهذه العلاقة غير الشرعية، فقد وُلِدَ قبل الأوان: (جاءتْ به مُعجَّلاً عن غِبِّ سابعةٍ) مُشَوَّهَ الخِلْقَةِ والخَليقةِ: (جهْمَ الوجهِ كالقارِ)، فهو أسود كالزِّفْتِ.

أكثر هجاء الأخطل لأمِّ جرير هو تسميَّتها "المراغةَ"، وقد كانت هذه التّسمية الأكثر دوراناً في شعر الأخطل الهجائي من أيِّ وصفٍ آخر، وهذه بعض الأبيات التي تكرّرَ فيها هذا الوصف[86]

- "ولقد شدَدْتَ على **المراغة** سرجها حتّى نَزعْتَ وأنتَ غيرُ مُجيدِ
- ما كان منزلُكَ الْمَرُّوتَ مُنْجَحِراً يا **ابْنَ الْمَراغَةِ**، يَا حُبْلى بِمُختارِ
- و**ابْنُ المراغةِ** حابسٌ أعيارَهُ قَذْفَ الغريبَةِ ما يَذُقْنَ بِلالاَ
- ولولاهمُ يا **ابْنَ المراغةِ**، كنتمْ لَقاً بين أطراف القنا للسّنابِكِ"

لقد تكرَّرَ لفظُ "المراغة" في شعر الأخطل كثيراً، ويعني به "أُمَّ جرير"، وهذه النّماذج هي بعضها فقط، ووصف المرأة بِـ "المراغة" هو سبٌّ صريحٌ؛ لأنّ الأخطل لم يصف أو يشبِّه أُمَّ جرير بالمراغة، ففي ذلك تَقَوّلٌ له دلالات متعدِّدة، لكنّه جعلها مَراغَةً: "ولقد شدَدْتَ على **المراغة** سرجها"؛ والمراغة هي تلك المرأة الفاسدة التي ترتكب الفاحشة وهذا إمْعانٌ في

[85] - ابن منظور، لسان العرب، مادّة: **مَرَغَ**.

[86] - الديوان، ص: 94،168، 221، 250.

السَّبِّ المَحْضِ، وما كان سبًّا فهو فُحْشٌ وإقذاعٌ لقول ابن رشيق: "فأمّا الهَجْوُ فأبْلَغُه ما خرج مخْرَجَ التّهَزُّلِ والتهافت، وما اعترض بين التّصريحِ والتّعريضِ وما قرُبتْ معانيه، وسَهُلَ حفظه، وأسرع عُلوقُه بالقلب ولُسوقُه بالنّفسِ، فأمّا **القَذْفُ والإفحاشُ فسبابٌ** محْضٌ، وليس للشاعر فيه إلاّ إقامة الوزن"[87]؛ ليس هناك قذْفٌ وفُحْشٌ أكثرَ من السّبِّ، وسبُّ المحارم أشدُّ إيلاماً على المهجوِّ.

*****

*- وممّا تقدّمت دراسته، يمكننا أن نَخْلُصَ إلى نتيجة مفادها أنّ الهجاء عند الأخطل وخاصّة في شقِّ **الذّمّ** منه، قد اتّسم بالفحش والإقذاع، وإن كان في حالات قليلة من غرض الهجاء، وللتّدليل على ذلك، نحاول أن نتعرَّفَ على بعض الألفاظ النّابية والعبارات البذيئة من بعض نماذج شعر الهجاء التي عَرَضْنا لها، وهذه أمثلة على ذلك:

4- ألفاظُ وعبارات الفُحْشِ في شعر الأخطل

4- 1 - العبارات:

- قال يهجو بني كُلَيب:[88]

- فلا تَدخُلْ بُيوتَ بنِي كُلَيْبٍ ** ولا تَقْرَبْ لهمْ أبداً رِحالاَ

[87] - ابن رشيق، العمدة، ج2، ص: 171.

[88] - الديوان، ص: 253.

ترى منها لوامعَ مُبْرِقــاتٍ ** يكَدْنَ يَنِلْنَ بالحَدَقِ الرِّجالاَ

قصيراتِ الخُطى عن كُلِّ خيْرٍ ** إلى السَّوْآتِ مُسْمِحَةً رِعالاَ

*- فالعبارة: "فلا تَدخُلْ بُيوتَ بنِي كُلَيْبٍ"، فيها نَهْيٌ "لاَ"، والنّهي لا يكون إلاّ لِما فيه ضَرَرٌ؛ والضّررُ – هنا – يتمثّل فيما داخل بيوت هؤلاء القوم؛ وهنّ نساء بني كُلَيب اللّائي يتربَّصْنَ بالرِّجال إغْراءً وتَحرُّشاً: "ترى منها لوامعَ مُبْرِقــاتٍ" وقوله كذلك: "يكَدْنَ يَنِلْنَ بالحَدَقِ الرِّجالاَ".

*- وكذلك العبارات:

- "لِمن وَرِثْنَ فِراشَ زانِيَـــــةٍ وزانِ[89]

- "كان يَعْتَسُّ الإماءَ الزَّوانِــيَا"[90]

فهاتان العبارتان، يصف فيهما النِّساء القيسيَّات بأنّهنَّ زانيات، وهذا كلام فاحش مقذع.

نختم هذا الفصلَ بالإشارة إلى بعض الدراسات الحديثة التي ترى في بيت الأخطل:

"**قومٌ إذا استنبَحَ الأضيافُ كلبهُمُ ** قالوا لأُمِّهُمُ: بُولي على النّار**"[91] أنّه أقذعُ بيتِ هجاءٍ قالتْهُ العربُ:

[89] - الدّيوان، ص: 345، 346.

[90] - الدّيوان، ص: 349،350.

[91] - الديوان، ص:166.

"إنَّ هذا البيت هو أقذع بيت هجاء قالته العرب، وفعلاً هو يُصنَّف مع بيت آخَر وهو البيت الذي قاله **الحطيئة** في **الزّبرقان بن بدر**:**دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها ** واقعد فإنّك أنت الطّاعمُ الكاسي**، على أنَّهُما أشدُّ الأبيات هجاءً في تاريخ الشِّعريّة العربيّة الكلاسيكيّة"[92].

– أمّا إذا نظرنا إلى الجانب الفنّي، فإنّ شعر الهجاء عند الأخطل، فإنّه يتّسمُ بضعف الخيال وبساطة العبارة والبعد عن الصّناعة الشعرية، "إذا أعدنا النّظرَ في كلِّ هذا الهجاء لم نجد فيه نصيباً كبيراً من الخيال أو الصّناعة الشعرية فهو كلام أشبه بالنّثر، يُقرِّرُ الأشياء كما هي، كل عمل الخيال فيها هو التلفيق وجمع أجزائها المبعثرة من هنا وهناك، يلائم بينها ليخلق منها صورة كاملة"[93].

[92] - موقع ألف: https://aleftoday.info/article.php?id=14674. 2020/06/20، الساعة: 17:46.

[93] - رشا عبيد عباس، صورة الفخر والهجاء في شعر النّقائض، رسالة ماجستير، جامعة الخرطوم، 2008/2007، ص: 102.

الخاتمة

الخاتمة

بعد هذه الرحلة العلمية الشّاقّة والشّيّقة، توصّلْنا إلى ملاحظة بعض النّقاط التي نراها تمثّل علاماتٍ فارقةٍ في شعر الأخطل، نذكر منها ما يلي:

1- يهتمُّ الأخطل بالابتداء بالمقدّمة الطللية أو الغزلية أو الظّعنية (وصف الظعائن، أو الرحيل) قبل مباشرة المدح أو الهجاء، على طريقة الجاهليين.

2- يتَّسِمُ شِعْرُ الهجاءِ عند الأخطل بالفُحْشِ والإقذاعِ بتوظيف العبارات البذيئة والألفاظ النّابية، ولو جاء ذلك في حالاتٍ قليلة.

3- شعر الهجاء عند الأخطل يتّسمُ بضعف الخيال وبساطة العبارة والبعد عن الصّناعة الشعرية.

4- بِنيةُ قصيدةِ المديح عند الأخطل هي امتدادٌ لمدرسة الصَّنْعةِ الجاهلية؛ فهو يستمدُّ صفات ممدوحيه من الموروث الجاهلي، غير أنّ المدحَ عنده اصطبغَ بلون السياسة.

5- الأخطل شديد الحرص على مدح قومه – أو بالأحرى الفخر بهم – عند مدحه الخلفاء والأمراء؛ فهو لا يترك مناسبة مدحِ خليفةٍ أو أميرٍ إلاّ ويتغنّى بمفاخر قبيلته وعشيرته.

6- قصيدة المدح عند الأخطل تمتاز بتعدُّد أغراضها، وبذلك هي صورة للقصيدة الشعرية العربية القديمة.

الملخّص

الملخّص:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على شعر الأخطل التعليمي ودراسة مختارات شعرية لديوان من غرضي المدح والذم اللذان شكلا طاهرة فنية ثقافية بارزة في الديوان الشعري العربي القديم حيث اعتبرت قصيدة المديح عند الأخطل امتدادا لمدرسة الصبغة الجاهلية وذلك لتعدد الإغراض وفا من شهرته عليها بالإضافة إلى إغراض أخرى منها الهجاء والخمر وغيرها كما صدقت الدراسة إلى الكشف عن الجوانب والقيم الجمالية والقيمة لشعره

الكلمات المفتاحية:

-الثنائية ، المدح ، الهجاء (الذّم) الأخطل.

Summary:

This research aims to shed light on the educational poetry of Al-Akhtal and to study poetic selections for a collection of the two purposes of praise and slander, which formed a pure artistic and cultural prominent in the ancient Arab poetic divan, where the praise poem at Al-Akhtal was considered an extension of the Al-Sabagh Al-Jahiliyya school for the multiplicity of its fame in addition to other purposes Including satire, wine and others. The study also proved the aesthetic and value aspects of his poetry

key words:

Dualism, praise, wrong spelling.

ملحق

1- نبذة عن حياة الأخطل:

هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو بن مالك بن جيتم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تلغب بن وائل بن قاسط بن هند بن أقصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن برار.[94]

يرجع الأخطل في نسله إلى تغلب وهي امرأة في العصور القديمة نسب إليها أبنائها إذ كانوا يرددون إسمها في الحروب "تغلب، تغلب" لإثارة الحماسة في المقاتلين فيصرخون بتغلب بن وائل وقيل أن اسم تغلب هو لقب ديار بن وائل الذي كان أمل أبيه في أن يكون غالبا .

وعرف عن تغلب وقوتها وبأسها فتاريخها حافل بالأمجاد والبطولات فهي لاتدخل فيما دخل فيها العرب كافة عن الإسلام ولم تتنازل عن دينها حين داهمتها جيوش المسلمين فبقية على نصرانيتها وأقرها عمر على ذلك ورضى بالجزية وظلت هي تؤديها كل عام

2 . نشأته وحياته :

لايمكن الجزم بتاريخ محدد لولادة الأخطل لأنه لم يذكر في المصادر العربية عن تاريخ ولادته، ولكن أغلب الظن أنه ولد بعد الجاهلية استنادا إلى رواية " أبي عبيدة "عن أبي عمرو بن العلاء ...التي جاء فيها :"لو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت إليه من أحد "والمعروف انه ولد في موقع قريب من الحيرة .

ليس للأخطل أسرة ذات شأن وتاريخ يفاخر به فقد كان أبوه غوث بن طارقة رجلا عاديا وإن ذكر" لويس شيخو" في كتابه" شعراء النصرانية بعد الإسلام " أنه كان من وجوه قومه أما أمه فسمها ليلى وهي من قبيلة إياد النصرانية ،ومن أولده لانعرف إلا مالكا الذي كني باسمه

[94]. مهدي ناصر الدين ،ديوان الأخطل ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،ط2 ،1994 ،ص3 .

وقد أراده أن يكون صاحب ذوق ودراية وكرم، وكان سفيرا متجولا لابيه يرسله في المهمات الأدبية ويعتمد على ذوقه الفني في هذا المجال .

أما عن زواجه فقد ذكر أنه تزوج تزوج أكثر من امرأة ولكن زوجته الأولى كانت أشهر نسائه ،فقد تحملت معه ضيق العيش في أوائل حياته .

أما قبيلة الشاعر فهي تغلب وكانت من قبائل ربيعة ولها تاريخ مجيد في الجاهلية حتي قيل فيها "لو أبطأ الإسلام قليلا لأكلت بنو تغلب الناس ،وكانت ديانتها وثنية ثم تسربت إليها النصرانية بعد ظهور الدعوة الإسلامية .

بدأت علاقة الأخطل بالأمويين بحادثة بعد إنتهاء وقعة صفين، وفتحت له بابا واسعا ولج منه إلى قصور بني أمية حتى أصبح شاعرهم الخاص ،وكان من فضل هذه الصلة على الأخطل أن رحب به أمراء الأمويين وولاتهم وفتحوا له أبواب قصورهم فوفد إليهم مادحا مستثيبا [95].

والأخطل كان شاعر مصقول الألفاظ حسن الديباجة في شعرة إبداع إشتهر في عهد بني أمية بالشام وأكثر من مدح ملوكهم وتهاجى مع جرير والفرزدق فتناقل الرواة شعره ،وكان معجبا بأدبه كثير العناية بشعره ينضم القصيدة ويسقط ثلثيها ثم يظهر مختارات ،وكانت إقامته طورا في دمشق مقر الخلافة من بني أمية وحينا في الجزيرة ،حيث يقيم بني تغلب قومه .

ويبدو الأخطل من خلال وصف معاصريه أشقر الشعر أصهب اللون، قريبا في سماته البدنية من الأعاجم ولكن الحياة القبلية صهرت فيه التقاليد العربية الأصيلة من شجاعة وكرم إضافة إلى سمات أخرى طبعت حياته وقصائده .

[95] .–المصدر نفسه ،ص 5،6 .

قال الزبيدي: رحل أخطل اللسان مضطرا وبه لقب الشاعر وزعم ابن قتيبة أن الأخطل مشتق من الخطل وهو استرخاء الأذن. وجاء في لسان العرب : إنما سمي بذلك لطول لسانه وقيل هو من الخط في القول، فهذه الألفاظ تعد ثانوية بالنسبة للقب الذي اشتهر به فقد ذكر المؤرخون أن أمه لقبته "بدوبل" والدوبل هو الحمار أو الخنزير قصير الذيل، ولقب كذلك بذي الصليب الذي علقته أمه على صدره والذي لاينزعه حتى عند دخوله على الخلفاء ،فعرف بذي الصليب.[96]

[96] المصدر السابق ،ص 7 ،13 .

قائمة المصادر والمراجع

أ . المصادر :

- القرآن الكريم

1 –أبوهلال العسكري، الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، دط، دت.

2 –أبو تمام، نقائض جرير والأخطل، تعليق: أنطوان صالحاني، المطبعة الكاثوليكية – بيروت، 1922.

3 –الأخطل، ديوان الأخطل، مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1994،2

4 –الأصفهاني، أبي فرج ،الأغاني، تح: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط 2 ،ج 1 .

5 –البخاري، الأدب المفرد ، تح فؤاد عبد الباقي ،دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط3 ،1989.

5– القيرواني، ابن رشيق، العمدة، دار الجيل، ط1981،5 ،ج2.

6– الجاحظ، الحيوان، تح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1996،ج1.

ب . المعاجم والقواميس:

1 –ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة ، د ط، د ت.

2 –إميل بديع يعقوب، ميشيل عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1987.

3 –إنعام العكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة، البديع والبيان والمعاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ،ط1996،2.

4 –الجرجاني الشريف، ، معجم التعريفات، تح: محمد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة – القاهرة، دط، دت.

5 –الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين مرتبا على حروف المعجم، تر وتح عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003،ج4.

6 –الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس، مرتب على طريقة مختار الصحاح والمصباح المنير، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، د ت، د ط .

7 –مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004 .

8 –محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ط2، 1999.

ج- المراجع:

1- أحمد حسن بسج، الأخطل شاعر بني أمية، دار الكتب العلمية، بيروت – دط، دت

2- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 1 1986 .

3- الخفاجي، محمد عبد المنعم، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، دار الجيل، بيروت، ط 1992،1 .

4- الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000 ،ج3.

5- شوقي ضيف، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، دار المعارف ،القاهرة، ط13.

6- غازي طليمات، عرفان الأشقر، تاريخ الأدب العربي، الأدب الجاهلي وقضاياه، أغراضه أعلامه، فنونه، دار الإرشاد، حمص، ط1 ،1992.

7- فيروز الموسي، قصيدة المديح الأندلسية، دراسة تحليلية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ،2009.

8- محمد هاشم عطية، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1936،2.

د. المجلات العلمية والرسائل الجامعية:

1 -أحمد جمعة فهيد الخواطرة، توظيف الإسلام في قصيدة المديح في العصر الأموي، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الأردن، 2003.

2 -جميل بدوي حمد الزهيري، المحمولات الثقافية في قصيدة المديح السياسية في العصر الأموي، مجلة كلية التربية واسط، ع1،13نيسان، 2013.

3 -حسين علي الزعبي، معايير شعر المديح عند النقاد العرب القدماء، مجلة جامعة دمشق، مج 34، ع1، 2018.

4 -رشا عبيد عباس، صورة الفخر والهجاء في شعر النّقائض، رسالة ماجستير، جامعة الخرطوم، 2008.

5 -عبادة حرز حبيب، بنية قصيدة المدح الفنية عند الأخطل، مجلة كلية التربية الأساسية بالجامعة المستنصرية، ع45، 2005.

6 -عبد الكريم حسن رعدان، البعد البلاغي في شعر جرير الهجائي، مجلة جامعة الناصرة، ع1، 2013.

7 -فاطمة تجور، أدب الطبائع في فقائض جرير والأخطل، مجلة جامعة دمشق، مج29، ع(1+2)، 2013.

هـ -المواقع الالكترونية:

1- موقع ألف: https://aleftoday.info/article.php?id=14674

20.06.2020. الساعة: 18:46

الفهرس

فهرس الموضوعات

البسملة.....I
شكر وعرفان II
الإهداء III
مقدمة .....أ-ج
مدخل **2-18**
1-المدح في الشعر العربي.....3
- لغة.....3
- اصطلاحا 5
- تطور فن المدح.....6
2- الهجاء في الشعر العربي.....10-16
- لغة.....10
- اصطلاحا 11
- تطور فن الهجاء.....13
الذم في الشعر العربي.....16-18
3- تعريف الذم.....16
4- ما بين الهجاء والذم.....17
- **الفصل الأول:** المدح في شعر الأخطل.....19-36
- تعريف المدح 20
أ- لغة.....20

ب- اصطلاحا 20
2- تعريف الذم 21
أ- لغة 21
ب- اصطلاحا 21
ج- الذم في الشعر العربي 22
3- المدح في شعر الأخطل 23
4- المدح الشخصي 25
4-1-مدح الخلفاء والأمراء 25
4-2 – مدح الولاة.....30
5-مدح القادة والأجواد.....32
5-1-مدح عكرمة الفياض.....32
6-المدح الجماعي.....33
6-1-مدح بني امية 33
6-2-مدح قريش.....35
الفصل الثاني: الذم في شعر الأخطل.....38-56
الذم في شعر الأخطل 38
1-الهجاء الشخصي.....40
1-1-هجاء جرير.....40
1-2-هجاء زفر زعيم القيسين 42
1-3-هجاء الدلماء.....43

1-4-هجاء ام كعب بن جميل 44
2-الهجاء الجماعي.....46
2-1-هجاء قوم جرير.....46
2-2-هجاء القيسيين 48
3-هجاء الأخطل بين الذم والفحش.....50
3-1- في هجاء قوم جرير.....51
3-2-في هجاء بني كليب.....52
3-3- في هجاء النابغة الجعدي والقيسبة 53
3-4-في هجاء عمير بن الحباب احمد زعماء قيس 53
3-5-في هجاء أم جرير..... 54
4-ألفاظ وعبارات الفحش في شعر الأخطل 56
4-1-العبارات.....58
الخاتمة.....60
الملخّص 62
الملخق 64
المراجع..... 68
الفهرس..... 72